مجلة البيان – العدد 68 ، ربيع الآخر 1414هـ / أكتوبر 1993م

كلمة صغيرة

لا يـخـلـو الجهد الإنساني من قصور ؛ وبالتالي من سلبيات والصحوة الإسلامية ، بوصفها جهداً إنسـانـيــاً يستهدي بكتاب الله وبسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وبمنهج سلفنا الصالح ، لم يكــن من المتصور أن تخلو من بعض السلبيات ، إلا أن كثرة الحديث عن نقد الصحوة والإلحـــاح عليه قد أنسى بعضاً منا »إيجابيات« هذه الصحوة ، وعطاءاتها المتميزة وآثارها الكبرى في حـيــاة الأمة ، هذه الإيجابية وتلكم الآثار ، التي حاولت »البيان« إبراز بعض جوانبها في هذا العدد.

المحرر

الافتتاحية

الإيجابية والسلبّية

التحرير

العناية والاهتمام بأخبار المسلمين وأحوالهم، والكلام عن المآسي والآلام في ديار الإســـلام، مـمـا يـقـتـضـيـه واجـب الـموالاة والنصرة ، حيث نحزن لحزن إخواننا ، ونفرح لفرحهم فالمسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه، اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كلّه«(1).

وهـذا الإحسـاس والاهـتـمـام يـجب أن يدفعنا إلى برامج عملية جادّة لمعالجة هذه الآلام أو تخفيفها، وهذا الواجب لا يخص فئة دون أخرى ، بل يشمل جميع القادرين من المسلمين ذكوراً وإناثاً، علماء وعامة، تجارا وأطباء مهندسين وغيرهم ، فعليك أخي المسلم المشاركة بما تستطيع لخدمة دينك وأمتك ، وقول ما تستطيع فلا يكفي منك مجرد مشاركة يسيرة بوسيلة قد يستطيعها الكثيرون ممن هم أقل منك قدرة وإمكانات، بل نريد المشاركة الجادة بـكـل مـا تـسـتـطـيـع مـن وسـائل، بل وابتكار وسائل وأساليب جديدة، فالثغرات كثيرة، والأعداء كثيرة والمسؤولية جسيمة، فلا مجال للتهرب من المسؤولية ، وإلقائها على الغير، أو الـتـعـلـل بالعلل الواهية، التي إن أعفتك أمام الناس، فلن تعفيك من المسؤولية أمام الله عز وجل، وهـنـــا لابــد لنا من التحذير من بعض السلبيات الواقعة لدى بعض العاملين في الحقل الدعوي :

1- التحذير من النقد السلبي، ومن مظاهره : كثرة النقد بمناسبة وبدون مناسبة، وتضخيم الـسـلـبـيـــات والأخطاء، والتقليل من الإيجابيات أو تجاهلها،

والإغراق في المثالية، مما يـصـيـب بـعـض طلبة العلم باليأس والإحباط، ومن ثم عدم تقديم أي شيء للـدعــوة، لأنه لا جــدوى مــن ذلك - حسـب ظـنـهـم - ونحن هنا لا نقلل من أهمية النقد والـتـقــويم، ومـراجـعــة الأخــطــاء، فالصحوة في أمس الحاجة له، وإنما نريد أن يكون ذلك باعتدال وتوازن مع طرح بدائل عملية أفضل.

2- تــوهــم البعض أن الإصلاح، ونصرة الدين لا تكون إلاَّ بهذه الوسيلة أو تلك، ومن ثمّ الـتـحـقـير والتصغير من شأن الوسائل الأخرى ، مثل أن يظن أن نصرة الدين لن تكون إلا بوسائل علنية، ولا يجدي غير ذلك، أو يظن أن ذلك لا يكون إلا بوسائل سرية ، ومن ثم يهون من تأثير الوسائل العلنية، وقد يتجاهل جهود الآخرين وإنجازاتهم ، وقــد يتجاوز مرحلة التجاهل فيشكِّك في أعمال الآخرين ، أو يطعن في نياتهم رغم اتفاقهم معه في المنهج والهدف، مما يؤدي إلى تشتت الجهود، وتفرق الكلمة والفشل، قال تعالى : ((ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ))

فـهـل مــن وقــفــة جــادة لتنسيق الجهود وتكاملها؟ هذا ما نرجوه، ونسأل الله عز وجل إخلاص النية والقصد ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهامش :

1- رواه مسلم كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم رقم 2586.

في إشراقة آية

((وإذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ))

د. عبد الكريم بكار

أنزل الله - جلَّ وعلا - في المنافقين سورة سُميت باسمهم ، تفضح بعض مواقفهم ، وتُخبر عن بـعـض صـفــاتهم، وكان من جملة ما نَعَتَهُمْ اللهِ تعالى به قوله :((وإذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وإن يَقُـولــوا تَسْمَعْ لِـقَـوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ))(1).

فقد وصفهم الله - تعالى - بأن الناظر إليهم يُعجبُ بجمال أجسامهم ، ومن يسمعهم يُؤخذ بفصاحة ألسنتهم ، لكنهم كالهياكل الفارغة ، أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام ...

وهذه الصفات تتناسب مع حالة النفاق ، إذ إن ظاهر المنافق دائماً خير من باطنه ، فظاهره الإيمان ، وباطنه الكفر ، وهو ذلق اللسان ، لكنه يقول غير ما يعتقد ؛ فهو كذاب ، وهو جميل الصورة ، لكنه عاطل من الصفات النبيلة كالإيمان والمروءة والرجولة ، وكل ما يزين الباطن.

وقـد روي عن ابن عـبـاس - رضــي الله عنهما - أنه قال : »كان عبد الله ابن أبي (رأسُ النفاق) وسيماً جسيما صحيحاً صبيحاً ذلق اللسان ، فإذا قال سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- مقالته«(2).
ولمّا كــان للـظـاهر سلطانه القوي في التأثير، وانتزاع الإعجاب علَّم النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه ضرورة تجاوزه إلى المعاني الباطنية ؛ لأنها هي الفيصل الحقيقي في تقييم الرجال ؛ وقد ورد في الحديث الصحيح : أن رجلاً مرَّ على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ما تقولون في هذا؟ « قالوا: حري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع يُشفع ، وإن قال أن يُستمع إليه « قالوا: »حريٌّ إن خطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يُشفَّع، وإن قـال ألا يُـسـتـمـع إلـيـه« ثـم مـــر رجـــل آخر ، فقال : »ما تقولون في هذا« . فقال رسول الله -صلى الله عليه وسـلـم: »هذا خير من ملء الأرض مثل هذا(3) ففضَّل النبي صلى الله عليه وسلم الـفـقـيـر على الغني ، وذلك لا يلزم منه تفضيل كل فقير على كل غني ، إنما أراد أن يعلمهم أن التفاضل لا يقوم أبداً إلا على المعاني الباطنية ، وما يتبعها من أعمال.
وتطرح هذه الآية الكريمة مسألة خطيرة في حياة الإنسانية بعامة وحياة المسلمين بخاصة ، هي قضية العلاقة بين الشكل والمضمون ، أو الجوهر والمظهر(4).
ونعني بالجوهر ابتداءً: مجموع الخصائص الخُلُقِيَّة والنفسية. والصور الذهنية، والخبرات والموازنات العميقة للفرد.
أما المظهر : فإنه مجموع ما يحمله الفرد من الصفات الجسمية ، وما يمتلكه من الأشياء ، وما يتحمله من وظائف ، مما لا يعد على صلة مباشرة بكينونته الذاتية.
في البداية ليس الجوهر والمظهر شيئين منفصلين انفصالاً تاماً، بل بينهما علاقة تأثر وتأثير وأخذ وعطاء، وقد ورد ما يدل على هذا فقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يمسح مناكب أصحابه في الصلاة، ويقول : »استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم«(5). والمرء حين ينشرح صدره يظهر ذلك على مُحيّاه ، ومن ثم قيل : »من كثرت صلاته بالليل ضاء وجهه في النهار« .
وإذا كان بين الظاهر والباطن مثل هذا التجاذب والتلازم فإن من البدهي ألا يزهِّد الإسلام الناس في الشكل ؛ فالصلاة موقف روحي بحت ، ومع ذلك حرص النبي -صلى الله عليه وسلم- على انتظام الصفوف فيها ، والأمر قريب من ذلك في صفوف القتال.
وحــث الإسلام على النظافة ، كما امتنَّ الله - تعالى - علينا بما نشعر به من التأنق عند غــدوِّ الأنــعــام ورواحــهــا، كـمـا قال سبحانه:((وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وحِينَ تَسْرَحُونَ)) (6) ، وتلك مسألة شكلية. والأمثلة على هذا أكثر من أن تُحصى.

إذن ما هي المشكلة؟

تـكـمن المشكلة في اختلال التوازن بين الجوهر والمظهر ، أو بين المضمون والشكل ؛ فالبشر مـتـفـقـون على أن اللباب هو الأصل ، وأنه ينبغي أن يُعطي من الاهتمام والعناية والبلورة القسط الأكبر لأن كل الإنجازات الحقيقية التي تتم على السطح نابعة أساساً من إنجازات تمت على مـسـتـوى الكينونة والجوهر. وهذا يتناسب مع حقيقة تسخير الكون الذي حبا الله - تعالى - به الإنـسـان ؛ كيما يظل حراً طليقاً يحكم ويأمر دون أن يُكَبَّل! بشيء من صنع يديه !

وللمجتمع وما يقره من أعراف سلطانٌ كبير على الناس ، ولما كان الحكم الاجتماعي منصباً على الشكل كان الانحدار نحو الاهتمام بالشكل هو الأمر الطبيعي المتبادر إليه، أما العناية بالجوهر فيمكن أن تنمو عن طريق التربية الخاصة في الأسرة أو المدرسة ، لكن ذلك سيظل ضعيف التأثير ما لم يكن المجتمع كله خاضعاً لمبادئ عليا خارجة عن إنتاجه ، ولن يكون مصدر تلك المبادئ حينئذ الأرض ، وإنما السماء ! لكن حين يكون الدين عبارة عن بعض الرؤى الغيبية ، أو الدغدغات العاطفية - كما هو الشأن عند بعض الملل - فإنه لا يضع شيئاً في مواجهة التيارات الاجتماعية العاتية ؛ لأنه لا يعدو آنذاك أن يكون عنصراً رخواً من عـنــاصـــــر الثقافة! وإن الذين الذي يوجِّه ويقاوم هو الذي نُمحِّص حياتنا من أجله!

وحـينما يضعف الوازع الديني لدى المسلم فإن الميزان يميل مباشرة لصالح المظهر. وبما أننا نعـيـش في عـصــر نـتـأثر فيه أكثر مما نؤثر فقد أضيف إلى ضعف الوازع الديني عند أكثر الناس الوقوع تحت تأثـيـر الفلسفة الغربية في جوانب الحياة المختلفة ، تلك الفلسفة التي شكَّلت من الإنتاج غير المحدود والحرية غير المحدودة والسعادة غير المتناهية ديناً جديداً اسـمـه الـتـقــدم ! واقـتـضـى ذلك توجهاً كلياً نحو الطبيعة لاستثمار كل شيء فيها ! ثم استـهــلاكــه بــصــورة جشعة لم يسبق لها مثيل ناسين أن موارد الطبيعة محدودة ، وأن الطبيعة. سوف ترد على ذلك ، بل إنها بدأت بالرد فعلاً !

وعـلــى صـعــيد الرمز فقد كان البطل المسيحي يستوحي شخصية الشهيد ، وهو عيسى - عـلـيه الـسـلام - حيث وهــب حـيــاته من أجل غيره - حين صلب كما يزعمون - ، ثم انقلبت الأمور رأساً على عقب، حيث صار العالم الغربي يستوحي شخصية البطل الوثني، كما يتجسد في أبطال الإغريق والرومان، ذلك البطل الذي يغزو، وينتصر،ويدمر، ويسرق، ويـنـهـب. وشتان ما بين شخصية الشهيد الذي يهب حياته من أجل غيره ، وبين المقاتل الذي غايته السيطرة على الآخرين وتضخيم الحياة الشخصية !!

وكـانـت النـتـيـجـة ولادة مجتمعات تعاني من الـوحــدة، والـقـلـق، والاكتئاب، والنزوع التدميري، والخوف من المستقبل، والأنانية الشخصية، والتفكك الأسري...

تأثرنا - نحن المسلمين - بهذا كله من حيث ندري ، ولا ندري ، وتوجهت قوانا الفاعلة نحو الخارج، وأهملنا الجوهر، وكانت حالتنا في بعض النواحي أسوأ ممن تأثرنا بهم؛ لأن الـقــوم صــاروا إلى الشكل بعد أن حققوا ذواتهم بطريقة فعَّالة وإن كان انحرافها يحمل في النهاية بذرة موتها ؛ أما نحن فقد غادرنا الجوهر لغمر أنفسنا بالشكليات !

والناظر في ســيــرة الـنـبـي -صلى الله عليه وسلم- والحياة العامة لصحابته - رضوان الله عـلـيـهـم - يـجد أن السيطرة كانت للكينونة الداخلية، وليس لما يمتلكه الناس من أشياء؛ لأن المحور الأساسي للحياة الاجتماعية كان الإنسان، وليس الأشياء؛ أما الآن فقد صارت (الملكية) هي المحور ، ويتجلى ذلك واضحاً في أمور عديدة منها :

1 - تناقصت الألفاظ المستعملة في الدلالة على الجوهر ، في حين زاد تداول الألفاظ الدالة على الأشياء ، فحديث المجالس لم يعد يتمحور حول البطولات، والإنجازات، والمواقـف الكريمة، والصفات الحميدة، وإنما حول العقارات، والسيارات، وأسعار الـسـلــع، وأثاث البيوت ، والأرصدة المالية...

2 - الرغبة في مزيد من الإنتاج لتحقيق مزيد من الاستهلاك جعل اعتماد الناس على الآلة يـتــزايـد يوماً بعد يوم، وصار الإنسان ترساً من تروسها، وصار دوره مكملاً لدورها؛ ومــن طبيعة هذا الشأن أن يزيد اهتمامنا بالمظاهر ، ويشغلنا عن الحقائق.

3 - كانت قيمة وجود الإنسان مستمدة مما يُحسن ويتقن ، وصارت المعادلة الجديدة : قـيـمـة وجودي مستمدة من مقدار ما أملك ، ومقدار ما أستهلكُ ! وهذا ولَّد الخوف الدائم من ذهـاب الملكية؛ لأن ذهــابــهـــا ذهــاب لمالكها؛ واقتضى ذلك مزيداً من الشح والأثرة والتقاطع...

4 - علاقتنا بالمعرفة تبدلت ؛ فقد كان حب العلم واكتساب المعرفة من أجل الفقه في الدين وتنمـية الشخـصـيـة ومعرفة الحياة... وكانت العملية التعليمية عبارة عن اندماج بين العلم وطالبه، أما الآن فقد صارت علاقة طالب العلم بما يطلب علاقة تجارية بحتة، فهو يتعلم لينال الشهادة ؛ وحفظه للمعلومات ظاهري ينتهي عند إفراغها على الورق في الامتحان !

5 - السمات الأساسية لـلـجــوهــر هي: الاستقـلالـيـة، والحرية، وحضور العقل النقدي، والاســتـخـدام المـثـمــر للـطـاقـة الإنسانية، والنمو، والتدفق، لكن العلاقات الاجتماعية، والسياسية ، والاقتصادية الجديـدة جعلت أنشطة الإنسان عبارة عن انشغال دائم مفصول تـمـامـاً عن قواه الروحية، بل يقف ضدها، ويحد من فاعليتها في كثير من الأحيان؛ ممــا أدى إلى الاتكالية والسأم والتذمر ، وجعل الحياة تفقد طعمها الحقيقي بشكل عام.

6 - كانت عواقب الاتجاه إلى الشكل والتغافل عن المضمون كثرَة اللذائذ وانعدام السعادة! واللذة إشباع الرغبة على نحو لا يتطلب نشاطاً ، مثل لذة الحصول على مزيد من الربح ، أو هي: تجربة لحظة من لحظات الذروة يعقبها

في الغالب نوع من الكآبة ، ولا سيما حين تكون غير مشروعة ، حيث يبدأ التقريع الداخلي.
أما السعادة فهي: شعور مصاحب للنشاط الإنساني؛ وهـي أقـرب إلـى أن تـكـون حالة من الوجود المتصل على ربوة رحبة ؛ لأنها وهجٌ لكينونة الإنسان ، ونشاطه الداخلي.
ويمكـن القول : إن السعادة في مقياسنا الإسلامي تتعاظم كلما ردم المسلم من الفجوة القائمة بين معتقداته وسلوكياته، حيث يرضى المسلم عن أدائه، ويستشرف عاقبة المتقين.
كـل هــذه التحولات باتجاه الشكليات جعلت كثيراً من أمة الإسلام قوة عددية لـيـس إلا؛ لأن الذي يفقد الصلة بمكوناته الأساسية لابد أن يصبح شكلياً. فهل تعيد الصحوة المباركة الأمر إلى نصابه بإعادة التوازن من جديد بين الشكل والمضمون، والجوهر والمظهر لنستأنف رسالتنا الحضارية؟! هذا ما نرجوه.
وعلى الله قصد السبيل.

الهوامش :

(1) المنافقون : 4.
(2) تفسير القرطبي 18 / 124.
(3) أخرجه البخاري.
(4) ننصح بالرجوع إلى كتاب »الإنسان بين الجوهر والمظهر« الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة في الكويت. وقد أفدت منه هنا في بعض ما كتبت.
(5) أخرجه مسلم وغيره..
(6) النحل : 6. ومثل هذا قوله سبحانه : ((والْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وزِينَةً)) .

أهل السنة
يعرفون الحق ويرحمون الخلق

عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد :
إن مـن الـقــضــايــا الـمـلحة التي ينبغي الاعتناء بها علماً وعملاً موضوع الصفات السلوكية والأخلاقية عند أهل الســنة والجماعة. فإن الناظر إلى واقع كثير من دعاة أهل السنة يرى ما هم عليه من تفرّق وخصومة وتناحر بل ربما تجاوز ذلك إلى حد التضليل والتفسيق.
ويبدو أن من الأسباب الرئيسية المؤدية إلى هذا الواقع المحزن الغفلة عن الالتزام بالصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنة ، فأنت ترى أن أولئك

الدعاة على توجه واحد ، ومنهج واحد في الاستدلال ، ومع ذلك كله فلا اجـتماع ولا وئـام، بل تشرذم وتناحر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
لـقـد اعـتـنــى السلف الصالح بالجانب السلوكي الأخلاقي علماً وفقهاً ، كما حققوه عملاً وهـديــاً ، بل إن أئـمـة السلف يوردون الصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنة في ثنايا كـتــب الـعـقــيـدة ، وعلى سـبـيل المثال فهذا قوام السنة إسماعيل بن محمد الأصبهاني (ت 535هـ) يقول :
»ومـن مـذهــب أهــل الـسـنـة الـتـورّع في المآكل والمشارب والمناكح، والتحرز من الـفـواحش والـقـبـائح، والتحريض على التحاب في الله عز وجل ، واتقاء الجدال والمنازعة في أصول الدين، ومجانبة أهل الأهواء والضلالة، وهجرهم ومباينتهم، والقيام بوفاء العهد والأمانة، والـخــروج من الـمـظالم والتبعات، وغضّ الطرف عن الريبة والحرمات، ومنع النفس عن الـشـهـوات، وترك شهادة الزور وقذف المحصنات ، وإمساكُ اللسان عن الغيبة والبهتان، والفضول من الكلام، وكظم الغيظ، والصفح عن زلل الإخوان، والمسابقة إلى فعل الخيرات، والإمــســاك عن الشبهات، وصلة الأرحام، ومواساة الضعفاء، والنصيحة في الله، والشفقة على خلق الله، والتهجد لقيام الليل لا سيما لحملة القرآن ، والبدار إلى أداء الصلوات«(1).
والحـديـث عن تلك الصفات السلوكية حديث طويل ، ولكن حسبي في هذه المقالة أن أشير إلى إحدى تلك الصفات المهمة ، ألا وهي أن أهل السنة يعلمون الحق ، ويرحمون الخلق ، فـإنـهــم أصـحــاب هدى واتباع، وأرباب عمل واقتداء، ومن ثم كانوا أعلم الناس بالحق، وأحرص الناس على تبليغ الدين والدعوة إليه ، ومنابذة أهل الأهواء والبدع ، وفي الوقت نفسه فإنهم يرحمون الخلق ، ويريدون لهم الخير والهدى ، ولذا كانوا أوسع الناس رحمةً وأعظمهم شفقة ، وأصدقهم نصحاً .

يقول ابن تيمية في هذا المقام :

»وأئمة الســنــة والجماعة وأهل العلم والإيمان فيهم العلم والعدل والرحمة ، فيعلمون الحق الــذي يـكــونــون بـه موافقين للسنة ، سالمين من البدعة ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم ، كما قال تَـعــالَى :((كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)) ويرحمون الخلق، فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، لا يــقــصــدون الـشــر لهم ابتداء، بل إذا عاقبوهم، وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم، كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق«(2).

ويقول ابن رجب في هذا الصدد :

»كان خلفاء الرسل وأتباعهم من أمراء العدل وأتباعهم وقضاتهم لا يدعون إلى تعظيم نفوسهم الـبــتــة، بــل إلى تعظــيم الله وحده، وإفراده بالعبودية والإلهية، ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا للاستعانة بها على الدعوة إلى الله وحده.

وكــانــت الرسل وأتباعهم يصبرون على الأذى في الدعوة إلى الله ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الـخـلق غاية المشقة وهم صابرون بل راضون بذلك ، كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز -رحـمـه الله- يــقـول لأبـيـه في خلافته : »إذا حُرِص على تنفيذ الحق وإقامة العدل يا أبت لوددت أني غَلَتْ بي وبك القدور في الله عز وجل« وقال بعض الصالحين : »وددت أن جسمي قُرِّض بالمقاريض ، وأن هذا الخلق كلهم أطاعوا الله عز وجل« ومعنى هذا أن صاحب ذلك القول قد يكون لحظ نـصـح الخلق والشفقة عليهم من عذاب الله ، وأحب أن يقيهم من عذاب الله بأذى نفسه ، وقـــد يكون لحظ جلال الله وعظمته ، وما يستحقه من الإجلال والإكرام والطاعة والمحبة ، فود أن الخلق كلهم قاموا بذلك ، وإن حصل له في نفسه غاية الضرر«(3).

إن التزام أهل السنة بالعلم والعدل أورثهم هذه الخصلة الرفيعة ، فمسلك أهل السنة قائم على العلم والعدل، لا الجهل والظلم ، حتى كان أهل السنة لكل طائفة من المبتدعين خير مـن بـعـضـهـم لـبــعض »بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعضهم، وهذا مما يعترفون هم به ، ويقولون : أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضاً لقد تلقى أهل السنة هذه الصفة الحميدة من صاحب الخلق العظيم نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، فلقد كان - عليه الصلاة والسلام - أعلم الناس بالحق ، وأعظم الناس رحمة ورأفة ، فمن أجل إظهار الحق بلّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، ومن أجل نصرة الحق نجده -صلى الله عليه وسلم- يغضب أشد الغضب ، فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب ، وكل ذلك حين رأى بعض أصحابه - رضي الله عنهم - يتخاصمون في القدر ، ثم قال : »مهلاً يا قوم بهذا أهلكت الأم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض : إن القرآن لم ينزل يكذّب بعضه بعضا ، وإنما نزل يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه«(4).

ومع ذلك كله فقد كان صلى الله عليه وسلم هو الرحمة المهداة ، قال تعالى : ((لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)) .

وفي الصحيحين عن عـائــشـة - رضي الله عنها - »قالت : ما خير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بـيـن أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس مـــنــــه ، وما انتقم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها«.

وتأمّل - أخي القارئ - ما لقيه -صلى الله عليه وسلم- من أنواع الأذى في سبيل دعوته ونصحه للخلق ، ولما سألته عائشة -رضي الله عنها قائلة : »يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد« فقال: »لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على

وجهي ، فلم استفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، ومــا ردوا عـلـيـك ، وقد بعث إليك ملك الـجـبــال لتأمره بما شئت فيهم ، قال فناداني ملك الجبال وسلّــم عـلـىّ ثـم قــال: يــا مـحـمـد، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا مــلــك الـجــبـال، وقــد بـعـثني إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً« ، أخرجه الشيخان.
ولـقـد سار سلف الأمة على ذلك، فهذا أبو أمامة الباهلي - رضي الله عنه - يقول الحق، ويـرحـم الـخـلـق، فإنه لما رأى سبعين رأسا من الخوارج، وقد جزت تلك الرؤوس ونصبت على درج دمشق، فقال رضي الله عنه إعلاماً بالحق: »سبحان الله، ما يصنع الشيطان ببني آدم ، كلاب جهنم ، شر قتلى تحت ظل السماء«.
ثم بكى قائلاً : »بكيت رحمة لهم حين رأيتهم كانوا من أهل الإسلام«(5).
وهذا الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل - رحمه الله - يثبت على كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، فيقول بكل يقين : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ويصبر الإمام على ما أصابه من أنواع الإيذاء والفتنة من قبل رؤوس المعتزلة - آنذاك - ، ومن تبعهم من خلفاء كالمأمون ، والمعتصم ، والواثق.
»ولما جاءه أحدهم وهو في السجن فقال : يا أبا عبد الله عليك رجال ، ولك صبيان ، وأنت مــعــذور - كـأنــه يــسـهــل عليه الإجابة -، فقال الإمام أحمد: إن كان هذا عقلك فقد استرحت(6).
ومما قاله الإمام الذهبى - رحمه الله - في شأن محنة الإمام أحمد :
»الصدع بالحق عظيم ، يحتاج إلى قوة وإخلاص ، فالمخلص بلا قوة يعجز عن القيام به ، والقوي بلا إخلاص يخذل ، فمن قام بهما كاملاً ، فهو صدّيق ، ومن ضَعُفَ ، فلا أقل من التألم والإنكار بالقلب ، وليس وراء ذلك إيمان ، فلا قوة إلا بالله«(7)
لـقـد كـان الإمــام أحــمـد بن حنبل رجلاً ليناً، لكن لما رأى الناس يجيبون ويعرضون عن الحق، عندئذ ذهب ذلك اللين، وانتفخت أوداجه، واحمرت عيناه(8).
ومع ذلك البطش والجدل والسجن من قبل أولئك الخلفاء إلا أننا نجد هذا الإمام يقول :
كـل مـن ذكــرنـي فـفي حلّ إلا مبتدعاً ، وقد جعلت أبا إسحاق - يعني المعتصم- في حل ورأيت الله يقول :"»وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم«" وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا بكر بالعفو في قصة مسطح - ثم قال - وما يـنـفـعــك أن يعذِّبَ الله أخاك المسلم في سبيله؟«(9).

وهاك مثالاً ثالثاً لأئمة أهل السنة، فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يـقـــرر عقيدة السلف الصالح، ويجاهد بلسانه وسنانه طوائف الزيغ والانحراف، فيرد على أهل الكتاب ويقمع أكاذيب الباطنية ، ويناظر الصوفية وأهل الكلام... وكل ذلك من أجل بيان الحق وتبليغه.
وفي الوقت نفسه فقد كان -رحمه الله- من أعظم الناس شفقة وإحساناً ، وإليك المشاهد الدالة على ذلك:
يقول ابن القيم: »جئت يوماً مبشراً له (أي لابن تيمية) بموت أكبر أعدائه ، وأشدهم عداوة وأذى له ، فنهرني وتنكر لي واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم ، وقال إني لـكـم مـكــانــه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، فسروا به ودعوا له«(9).
ولـمـا مرض ابن تيمية - مرض الوفاة - دخل عليه أحدهم ، فاعتذر له ، والتمس منه أن يحلله، فأجاب الشيخ: »إني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الـحـق، وإني قـد أحـلـلـت الـسـلـطــان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي، كونه فعل ذلك غيره ...«(10).
وقــال أحد خصومه (ابن مخلوف): »ما رأينا مثل ابن تيمية، حرّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا«(11).
وأخـيـراً أدعــو إخــوانـي إلى ضرورة معرفة الحق ورحمة الخلق، وأن نهتم بتحقيق العلم والعدل في هذا الشأن، وأن نسـعـى جـــــادين صادقين إلى تحقيق منهج أهل السنة عقيدة وسلوكاً ، والله المستعان .

الهوامش :

(1) الحجة في بيان المحجة 2 / 528. وانظر عقيدة السلف للصابوني (ت 449 هـ) ص 97 - 99 واعتقاد أئمة الحديث للإسماعيلي (ت 371 هـ) ص 78 ، وانظر آخر مبحث في العقيدة الواسطة لابن تيمية.
(2) الرد على البكري ص 257.
(3) شرح حديث »ما ذئبان جائعان« ص 19.
(4) أخرجه أحمد 2 / 181 ، 195 وابن ماجه (85).
(5) انظر تفصيل ذلك في الاعتصام للشاطبي 1/71 - 73.
(6) الآداب الشرعية لابن مفلح 2 / 24 .
(7) أسير أعلام النبلاء 9 / 234.
(8) المرجع السابق 9 /238 .
(9) مدارج السالكين 2/345 .
(10) الأعلام العلية صـ 82 .
(11) الباب الثالث 14 /54 .

سد الذرائع
(1)

هيثم الحداد

مـن خــصــائـص هـذه الـشـريـعة وميزاتها صلاحيتها لكل زمان ومكان ، وهو ما يُعبّر عنه أحياناً بالشمولية.
فأدلتها الأساسية وهي نصوص الكتاب والسنة ، وما ثبت من الإجماع - الذي هو بمثابة الــنــصــوص أيضاً - محصورة، لكنها مع ذلك صالحة للاستدلال على الوقائع المتجددة، التي لم تكن جزءاً من الواقع عند تنزل النصوص.
ولقد بذل علماء هذه الأمة جهودا عزّ نظيرها في خدمة هذا الدين ، وإن من أعظم جهودهم في ذلك اسـتـقــراءهـــم نصوص الكتاب والسنة ، وإعمال النظر فيها ، فألفوا بين النصوص ذات الدلالات المتشابهة، وخرجوا بقواعد كلية، تنتظم تحتها جملة من الفروع الفـقـهية، فـإذا صـحـت هـذه القواعد على ما وقع، فإنها تصح كذلك على ما يقع، سواء أتى النص بحكمه أم لا.
ومن هذه القواعد ، قاعدة »سد الذرائع« وهي قاعدة عظيمة ، لها تطبيقات عديدة ، سيما في عصرنا الحاضر ، حيث كثرت نوازله ، وتعقدت مسائله ، فهي جديرة بالبحث.

*** تعريف »الذرائع« لغة :**

الذرائع جمع ذريعة ، وهي الوسيلة ، والسبب إلى الشيء ، أصلها لغة من ذرع(1).
فـ "»ســد الذرائع«" لغة : سدّ الطرق حتى لا تؤدي إلى نتائجها وآثارها ، بصرف النظر عن كون هذه الآثار محمودة أو مذمومة(2).

*** تعريف »الذرائع« اصطلاحاً :**

يقول شـيـخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : »الذريعة هي الوسيلة ، لكنها أصبحت في عرف الفقهاء عبارة عمّا أفضى إلى فعل محرّم«(3).
وعرفها الـقــرطبي - رحمه الله - بقوله : »عبارة عن أمر غير ممنوع في نفسه ، يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع« (4). وهذا من أرجح التعريفات(5).
وعلى هذا فالذريعة بالمعنى الاصطلاحي هي أحد أفراد الذريعة بالمعنى اللغوي ، يؤكد ذلك ما قاله القرافي رحمه الله : »اعلم أن الذريعة كما يجب سدها يجب فتحها ، وتكره ، وتـنـدب، وتــبـــاح ، فإن الذريعة هي الوسيلة، فكما أن وسيلة المحرم محرمة، فوسيلة الـواجــب واجــبـة، كالسعي للجمعة والحج. وموارد الأحكام على قسمين: مقاصد، وهي المتضمنة المصالح والمفاسد في أنفسها ، ووسائل ، وهي الطرق المفضية إليها ، وحكمها حكم مـا أفـضـت إلـيــه مـن تـحـريـم ، وتحليل، غير أنها أخفض رتبة من المقاصد

في حكمها، والوسائل إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل، وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل، وإلى ما يتوسط متوسطة«(6).
فللذريعة - إذن - ثلاثة أركان ، هي : الوسيلة ، والمتوسَّل إليه ، والواسطة بينهما ، أو إفضاء الوسيلة إلى المتَوسَّل إليه.
ومثال ذلك : بيع العنب ، فهو وسيلة غير ممنوعة في نفسها ، واستخدام هذا العنب في صناعة الخمر هو المتوسَّل إليه ، ودرجة الإفضاء هو قوة ثبوت استخدام هذا العنب الذي بيع في صناعة الخمر ، ولهذه درجات متفاوتة.
وعلى هذه الأركان تُبنى جلّ مباحث الذرائع: تقسيماتها، وأحكامها، بل حتى تعريفها، ولذلك فإن دراسة كل ركن من هذه الأركان على حدة من الأهمية بمكان.

الركن الاول : الوسيلة :

وهي الأساس - الذي تقوم عليه الذريعة ، فبوجودها توجد باقي الأركان.
والــتـعـبـيـر عـن هـذه »الـوسـيـلـة« بأنها »أمر غير ممنوع في نفسه، يدخل المباح، والمندوب، والواجب ، ويُخرج ما كان ممنوعاً في نفسه، كشرب الخمر، فهو ذريعة للفرية ، والزنى، فهو ذريعة لاختلاط الأنساب ، لكنهما محرمان في أنفسهما ، حتى ولو لم يؤديا إلى تلك المفاسد..

الركن الثاني : المتوسَّل إليه :

ولابـد أن يـكـون أمــراً ممنوعاً ، إذ لو كان أمراً جائزاً ، لانتقلنا من الحديث عن الذريعة بالمعنى الاصطلاحي إلى الذريعة بالمعنى اللغوي.
ويُفهم من عبارات العلماء إرادة مطلق المنع أو التحريم ، ولم يحددوه بدرجة معينة ؛ إذ المنع تختلف درجاته - كما هو معلوم - ، فيتبع ذلك اختلاف قوة منع الوسيلة المفضية إليه ، فما كان المنع منه أقوى كالاعتداء على الضروريات الخمس ، كان المنع من الوسائل المفضية إليه أقوي ، فالشريعة - مثلاً - جاءت بسد أي وسيلة تؤدي إلى المساس بالدين ، سواء أكان بالابتداع فيه ، أو التساهل في أمره ، ولو كان في المحافظة عليه ذهاب الأنفس والأموال ، لأنه أهم الضروريات.

الركن الثالث :

إفضاء الوسيلة إلى المتوسل إليه ؛ وهو الذي يصل بين طرفي الذريعة : الوسيلة والمتوسل إليه.
والـبـحـث فـي هــذا الـركــن يكون في قوة الإفضاء هذه ، فهناك وسائل يكون إفضاؤها إلى المحذور ضعيفاً ، كزراعة الـعـنـب مطلقاً ؛ فإنه وسيلة إذ قد يتخذه بعض الناس لصناعة الخمر ، فهل تُمنع زراعته ؟ وإذا بيع لمن يصنع منه الخمر ، فإنه يصبح ذريعةً إفضاؤُها إلى المتوسل إليه قوية.
وضـابـط هــذا الـركــن من أهم أسباب الخلاف في تعريف العلماء للذريعة؛ لأن قوة الإفضاء تختلف ، ودرجاتها ثلاثة : ضعيفة ، وقطعية ، وما بينهما.

وعلى هذا فالمقصود بسدِّ الذرائع شرعاً : »حسم مادة الفساد بقطع وسائله«(7).

أقسام الذريعة وأحكامها :

بالنظر إلى التعريف السابق للذريعة ، وإلى حال كل ركن من أركانها على حدة نحصل على الأقسام الآتية:

القسم الأول :

وضابطه أن قوة الإفضاء فيه نادرة ، سواء أكانت الوسيلة :
أ - واجبة ؛ كالذهاب إلى صلاة الجماعة في المساجد لسامع النداء ؛ إذ قد يتعرض بيته وماله إلى السرقة.. وهكذا.
ب - أو مندوبة ؛ كالصدقة على عموم المسلمين الذين لا يُدرى ما حالهم.
جـ - أو مباحة ؛ كالتجاور في البيوت ؛ فإنه يفضى نادراً إلى الزنى.
وحكم هذا القسم الجواز في صوره الثلاث ؛ لأن النادر لا حكم له.

القسم الثاني :

وهو أنواع، تشترك في أن قوة الإفضاء: إما قطعية، أو غالبة، أو كثيرة ولكن ليست بغالبة ، فيحصل لدينا ثلاثة فروع :
1 - وسيلة مباحة تؤدي إلى محرّم ، كالسفر إلى البلاد التي تكثر فيها المنكرات ، وارتياد الأماكن العامة إذا أدى ذلك إلى رؤية المنكرات وعدم إنكارها أو أدى إلى النظر إلى العورات. وكقيام ذي الهيئة الذي يُتخذ في الناس قدوة بفعل مباح على وجه يسئ الجاهل فهمه، فيعتقد حل محرم أو تحريم حلال، ومن ذلك تولي الولايات في الجهات أو المؤسسات التي يلتبس أمرها على العامة ، فإن رأوا فيها الدَّيِّنَ الثِّقة ، ظنوا صلاحها وشرعيتها.
أما حكم هذه الذريعة فهو السدّ ؛ لأنها تؤدي إلى مفسدة أكبر من المصلحة المترتبة على فعلها..
2- وسيلة مندوبة تؤدي إلى محرّم ، كالسفر إلى الحج النافلة ، أو إلى الدعوة غير الواجبة إذا كان ذلك يؤدي إلى تضييع حق الأولاد ، أو يغضب الوالدين.
وحكم هذه الذريعة المنع أيضاً ؛ لأن مفسدتها أعظم من مصلحتها.
3- وسيلة واجبة تؤدي إلى محرم، وهذه موطن رحب للاختلاف، وإعمال الاجتهاد، فمن العلماء من يرى منعها مطلقا ، تغليبا لجانب الخطر على الإباحة.
والأمر يحتاج إلى نوع تفصيل، يعتمد على القاعدة الأساس في الحكم على الذرائع، وهي: »إذا تعارضت مفسدتان دُفع أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما«.
ومن صور هذا الفرع، إذا كانت الوسيلة واجبة ضرورية متعلقة بفرد واحد، تؤدي إلى متوسَّل إليه ممنوع متعلق بأمر ضروري أيضاً ، لكنه متعلق بمجموعة ، فما الحكم؟

والأمثلة الواقعية على ذلك كثيرة، وكل مسألة تحتاج إلى دراسة مستقلة حسب ظروفها ، وملابساتها ، وما يحيط بها.
* تحرير محل النزاع بين العلماء في سد الذرائع :
تـنـقـسم الذرائع من حيث الحكم عليها إلى ثلاثة أقسام :
أ- قسمٌ أجمع العلماء على سده ، بصرف النظر : هل يُعتبر من باب »الذرائع« أم لا ؟ فبيع الـعـنـب لمن يتخذه خمراً ، وإلقاء السُّمِّ في أطعمة المسلمين ، ونحوهما من الأعمال ممنوعة ســـواء أسميت »ذرائع« أم لا ، وسواءً أكان الاستدلال على منعها بقاعدة »سد الذرائع« ، أو بقواعد شرعية أخرى ، كاستدلال ابن حزم - وهو ممن لا يرى العمل بسد الذرائع - على حـرمـة ما ذُكر بقاعدة تحريم التعاون على الإثم والعدوان.
فـالـخــلاف المتعلق بهذا القسم خلاف لفظي لا ثمرة له، ومنشأ الاختلاف مبسوط في كتب الأصول.
ب - قسم أجمع العلماء على عدم سدّه، سواء سمي ذرائع أم لا، وذلك مثل زراعة العنب مطلقاً ، فلا تمنع خشية أن يستخدمه بعض الناس لزراعة الخمر.
جـ - الـقـســم الـثـالـث هو موطن النزاع ، الذي وقع فيه خلاف حقيقي ، والخلاف فيه بالتحديد في صورتين :
الأولى : ما هي درجة الإفضاء التي يحكم عندها بمنع الوسيلة، هل هي الدرجة القطعية، أم الظنية ظناً غالباً - وإن لم يكن كثيرا - ، أم الدرجة الكثيرة ؟ بمعنى هل يُلحق الكثيرُ غـيـرُ الـغـالـــب، بالغالب، فيأخذان حكم القطعي؟ الظاهر - والله أعلم - أنهما يلحقان بالقطعي، فيحكم عندئذ بسد الذرائع، وذلك من أجل الاحتياط ، ولأن كثرة وقوع المفاسد مع قابليتها للتخلف يجعلها قريبة الوقوع، ثم إن الشرع ورد بتحريم أمور كانت في الأصل مباحة ؛ لأنها تؤدي في كثير من الأحيان إلى مفاسد ، حتى وإن لم تكن غالبة(8).
الثانية: هل العبرة في العقود بمجرد الظاهر - كما يرى ذلك الـشـافـعية - أو أن للـقـصــد تأثيراً في الحكم على الذريعة؟ بمعنى : هل يمنع الفعل الذي يؤدي إلى ممنوع حتى وإن لم يقصد صاحبه ذلك الممنوع؟ كمن يسب آلهة المشركين أمامهم، غيرة على ديــنـــــه، مع أن ذلك يؤدي إلى سب الله - تعالى - الذي لا يقصده مسلم. الراجح أن القصد ليس له تأثير في الحكم على الذريعة ، خصوصاً قبل الفعل ، فالكلام في المنع الذي يكون قبل الفعل ، لا في التأثيم الذي يبحث فيه بعد الفعل ، وذلك حتى لا يفتح الباب لفعل ذلك مرة أخرى ، وحتى لا يتساهل الناس في ذلك ، أو يظنوا حِل ذلك الفعل(9).

الهوامش:

(1) انظر : مادة (ذرع) في : القاموس المحيط ، ومختار الصحاح.
(2) انظر : سد الذرائع للبرهاني 52 وما بعدها.
(3) الفتاوى المصرية الكبرى 6/ 174 .
(4) انظر : سدّ الذرائع للبرهاني 74.

(5) وهناك تعريفات أخرى انظرها في : البحر المحيط للزركشي 6 / 82.
(6) الفروق 2 / 33 ، وقارن بما في إعلام الموقعين 3 / 147.
(7) تقريب الوصول لابن جزي 149.
(8) أصول الفقه وابن تيمية لآل منصور 503.
(9) المصدر نفسه 503.

خواطر في الدعوة

الهروب إلى الأمام

محمد العبدة

عندما تكون وطأة الواقع ثقيلة قوية ، وعندما لا يقوم المسلمون بواجبهم من الأخذ بالأسباب الشرعية والاهتمام بالعدد والعدة، وعندما يفشلون بسبب أخطائهم المتكررة ، أو مخططاتهم القاصرة، عند ذلك يلجأ بعضهم إلى ما يسمى في علم النفس بسياسة (التعويض) فتوسوس لهم نفوسهم تخيلات موهومة، وحكايات عجيبة، وأشياء مضطربة، تتملكهم وتسيطر عليهم، حتى يظنونها شيئاً وهي ليست بشيء ، وإنما هي أوهام وظنون. فيركضون - مثلاً - وراء (خليفة) وهمي، أو يقعون في حالة اليأس والإحباط وينتظرون (المهدي)، أو يذهبون إلى عالم آخر، عالم الجن والشياطين، فقد حدثني أحد الثقات أنه قد ألف في بلده وحدها في السنوات الأخيرة حوالي سبعين كتاباً أو كتيباً عن الجن والشياطين، وغالباً ما تكون النوايا طيبة في مثل هذه الحالة ، ولكن ليس هذا هو الطريق. وقد يهرب أناس من هذا الواقع الذي يدعوهم للتحدي والتعب والنصب إلى الإغراق في تفاصيل العلوم ، الذي هو من قبيل (تلبيس إبليس) والذي غيره أفضل منه وأولى.

إن حالتهم هذه شبيهة بما وقع للمسلمين بعد القرون المفضلة، عندما هرب بعضهم إلى التصوف والزوايا والتكايا ، ينذرون للأولياء النذور ، ويطلبون منهم الحاجات ، فوقعوا في الشرك والكسل والبطالة ، كما وقعوا في الأفكار الغامضة المشوشة.

تكَالب العالمُ في هذه الأيام على المسلمين ، ورماهم عن قوس واحدة ، وأظهر ما كان يخفيه من قبل، وبانت عداوته صريحة لا التواء فيها، فماذا يفعل المسلمون؟

هل يجابهون هذا بافتعال أمور ليست صحيحة؟ أم أن الأولى بهم دراسة هذا الواقع، والتأمل فيه، ومعرفة مكامن القوة ومكامن الضعف، ومجابهة هذا الواقع بالإمكانات الذاتية والقدرات الموجودة بعد تنميتها وصقلها.

لابد من البحث العميق في نفسية المسلم وعقله وأخلاقه التي تعيق النهوض والتمكن، والبحث العميق في أسباب التفرق وأسباب التوحد ، والإخلاص في ذلك كله لله. ولابد من تملك ناصية كل العلوم المفيدة التي

يأمر بها الإسلام ويحبذها، لتكون وسيلة من وسائل ((وأعدوا....)) ولابـد مـن الـمال الذي يساعد على تحقيق هذه الأهداف حتى يكون الدين كله لله.
لاشـك أن هـذه الأمـور أصـعـب عـلى النفس التي تلجأ إلى أحلام اليقظة ، وتستروح رفقة يؤيدون هذا الهروب ويشجعونه سواء أكان عن جهل ، أو عن خفيات الهوى ونزغاته..

مصطلحات وتعريفات

الكـُفْــر

بقلم / عثمان جمعة ضميرية

-1-

الكفر في اللغة هو الجحود. وأصله من الكَفْر ، وهو السَّتْر والتغطية.
يقال: كفْرتُ الشيء: إذا غطيته. ومنه قيل للَّيل: كافر ، لأنه يستر الأشياء بظلمته.
وسـمـى الـزارع كافرا لأنه يستر الحبَّ بالتراب. وليس الكافر اسما لليل أو الزارع ، ولكنه وصف لهما.
والكفر: ضد الإيمان، سمى بذلك لأنه تغطية وستر للحق، فالكافر ساتر للحق، أو سـاتــر لِنَعم الله تعالى عليه.
ويقال : كفر بالله ، يكفُر كُفراً ، وكفوراً ، وكُفرْاناً. وأكفر فلانا : دعاه كافراً.
وتـسـتـعـمـل كلمة »الكُفْر« في الدين أكثر من استعمالها في كفران النعمة، »والكفران« في جحود النعمة ، و »الكَفور« فيهما جميعاً. و»الكافر« عنه الإطلاق - متعارف فيمن - يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة ، أو يجحدها جميعاً (1).
وأما تعريف الكفر اصطلاحاً ، فيقول ابن تيمية في ذلك :- »الكفر :عدم الإيمان ، باتفاق المسلمين، سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أولم يعتقد شيئاً ولم يتكلم« مجموع الفتاوي 20/86.
ويقول أيضاً :- »إنما الكفر يكون بتكذيب الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيما أخبر به ، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه ، مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم« درء تعارض العقل والنقل 1/242.
ويعرف ابن حزم الكفر بهذه العبارة :
وهو [أي الكفر في الدين] : صفة لمن جحد شيئاً مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة عليه بقلبه دون لسانه ، أو بلسانه دون قلبه ، أو بهما معاً ، أو عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان.

ويقول السبكي : »التكفير حكم شرعي سببه جحد الربوبية ، أو الوحدانية ، أو الرسالة ، أو قولٌ أو فعلٌ حكم الشارع بأنه كفر ، وإن لم يكن جحدا« (فتاوي السبكي 2 / / 586)
فالكفرْ اعتقادات ، وأقوال ، وأعمال ، حكم الشارع بأنها تناقض الإيمان.
والكفر حكم شرعي ، والكافر من كفره الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- فليس الكفر حقا لأحد من الناس ، بل هو حق الله تعالى.
يقول ابن تيمية :- »ولهذا كان أهــل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم ، وإن كان ذلك المخالف يكفرن ؛ لأن الكفر حكم شـرعـي ، فليس للإنسان أن يعاقب بمثله ، كمن كذب عليك ، وزنى بأهلك ، ليس لك أن تكــذب عليه ، ولا تزنى بأهله ؛ لأن الكذب والزنا حرام لحق الله تعالى. وكذلك التكفير حق الله فلا يُكفر إلا من كفّره الله ورسوله« الرد علي البكري ص 257.
ويقول ابن الوزير :- »إن التكفير سمعي محض لا دخل للعقل فيه ، وإن الدليل على الكفر لا يكون إلا سمعياً قطعياً ، ولا نزاع في ذلك« العواصم والقواصم 4 / 158.
والكفر نوعان : كفر أكبر ، وكفر أصغر.
أما الكفر الأكبر ؛ فهو ما يضادُّ الإيمان من كل وجه ، ويُخرج صاحبه من الدين والملة ، ويُوجب له الخلود في النار. قال الله تعالى : ((إِنَّ الَذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا))[البينة:6]
وهذا الكفر يأتي في النصوص الشرعية مقابلاً للإيمان فيكون ضده.وإذا أطلق لفظ »الكفر« فإنه ينصرف إلى هذا النوع ، فهو الكفر الأكبر الذي يحبط العمل ، ولا يغفره الله لصاحبه إذا مات عليه.
ويتنوع الكفر إلى ستة أنواع ، من لقى الله تعالى بواحد منها لم يغفر له ، وهي(2):
1 - كفر الإنكار ، وهو أن ينكر بقلبه ولسانه ، ويزعم أنه لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به ، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد ، قال الله تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ))[البقرة:6] : أي كفروا بتوحيد الله وأنكروا معرفته.
2 - كفر الجحود ، وهو أن يعرف الله بقـلـبـه ، ولا يقـــرّ ولا يعترف بلسانه ، فهو كافر جاحد ، مثل كفر اليهود وجحودهم لنبوة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، وكتمانهم لصفاته في كتبهم :((إِنَّ الَذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ويَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ))[البقرة:159].
وهذا الجحود قد يكون عاما بأن يجحد جملة ما أنزله الله تعالى أو يجحد إرسال الرسل ، وقد يكون خاصاً مقيداً ، بأن يجحد فرضاً من فروض الإسلام ، أو يجحد تحريم محَّرم من محرماته.

3 - كفر الشك، حيث لا يجزم بصدق رسول الله ولا بكذبه، بل يشك في أمره، ولا يستمر هذا الشك إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن آيات الله ، ودلائل صدق الرسول.
4 - كفر الإعراض ؛ بأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، فلا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه. وبينه وبين ما سبق صلة.
5 - كفر النفاق، بأن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي قلبه على التكذيب، وهـــــو النفاق الاعتقادي.
6 - كفر العناد ؛ وهو أن يعرف الله بقلبه ويعترف ويقرّ بلسانه ، ويأبى أن يقبل الإيمان أو أن يدين به ، فهو كفر إباء واستكبار ، مثل كفر إبليس .
- وما أكثر الأبالسة اليوم - فإنه لم يجحد أمر الله تعالى ، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار. وكذلك كفر فرعون وأبي طالب إنما هو من هذا اللون.
وأما الكفر الأصغر فهو مخالفة لحكم من أحكام الشريعة ، ومعصية عملية لا تُخْـــرج عن أصل الإيمان ، وإنما توجب لصاحبها الوعيد بالنار دون الخلود فيها ، وسميت كـفـــرا لأنها من خصال الكفر.(3)
ويمكن تعريفه بأنه كل معصية أطلق عليها الشارع اسم الكفر ولم تصل إلى حد الكفر.
وهـذا النوع من الكفر يسميه بعض العلماء : الكفر العملي ، الذي يقاب الكفر الاعتقادي. وهــو أيضاً : كفر النعمة ، مع العلم أن الكفر العملي ينقسم إلى : ما لا يخرج عن الـمـلــة كالطعن في الأنساب والنياحة على الميت.
وقسم يخرج عن الملة كالسجود لغير الله ، وإهانة المصحف.
ومن الأمثلة الظاهرة على الكفر الأكبر في عصرنا الحاضر : الامتناع عن الحكم بشريعة الله تعالى ، وتطبيق القوانين الوضعية بدلاً عنها.
إن الحكم بما أنزل الله تعالى وحده هو إفراد الله بالطاعة ، قال تعالى :((إِنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ)) [يوسف :40].
والإشـــــراك بالله في حكمه ، والإشراك به في عبادته كلها بمعنى واحد ، لا فرق بينهما البتة ، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله ، وتشريعاً غير تشريع الله ، كالذي يعبد الصنم ، ويسجد للوثن ، لا فرق بينهم البتة.
ويكون الحكم بغير ما أنزل الله كفراً أكبراً في عدة حالات منها :
1 -أن يجحد أو ينكر الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الشريعة.
2 -أن يفضل حكم الطاغوت على حكم الله تعالى.
3 - أن يساوي بين حكم الله تعالى حكم الطاغوت.
4 - أن يجوز الحكم بما يخالف حكم الله وروسوله ، أو يعتقد أن الحكم بما أنزل الله تعالى غير واجب ، وأنه مخير فيه.
5 - من لم يحكم بما أنزل الله إباءً وامتناعاً ، فالكفر ليس تكذيبا فحسب ، بل قد يكون امتناعاً عن اتباع الرسول مع العلم بصدقه ، والإيمان قول وعمل ، وتصديق وانقياد ، فلا يتحقق الإيمان مع ترك الانقياد والطاعة.

الهوامش :

1 - انظر: الزاهر للأزهري ص:(379)، معجم مقاييس اللغة:5/9، لسان العرب:5/144 الكليات للكفوي:2/535، مفردات القرآن للراغب ص (434)، المغُرِب للمطرزي:2/224.
2 - هذا التقسيم نجده عند علمائنا قديما، فـهـو فـي »الزاهــر« للأزهري ث(380 - 381) وتفسير البغوي : 1 / 64 طبعة دار طيبة. وشهره ونشره الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومن قبله ابن القيم - رحمهم الله تعالى.
3 - فتح البارى لابن حجر:1 / 83 - 84، شرح النووي على صحيح مسلم: 2/49-50.

من فقه الدعوة

دعوة إبراهيم عليه السلام (3)

أساليب إبراهيم عليه السلام في نشر دعوته

محمد بن عبد العزيز الخضيري

1 - تقرير توحيد الألوهية ببيان دلائل الربوبية :

جـمـيع دعـوات الرسل قائمة على تقرير توحيد الألوهية الذي من أجله خلق الله الثقلين ((ومَا خَلَقْتُ الـجِـنَّ والإنـسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ)) ، وهو الذي اختلف الناس فيه ، ووقع لديهم بسببه زيغ عظيم ، ولذلك أخـبــرنا الله عن هدف بعث الرسل بقوله ((ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)).

أما توحيد الربوبية : فأكثر الناس مـتـفـقـون عليه ، وهو الإقرار لله بالخلق والتدبير والملك ((ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَـيَـقُـولُنَّ اللَّهُ)) وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية ، فالذي يستحق العبادة وحده هو الــذي يـخلق ويرزق ، ويحي ويميت ، وينفع ويدفع ، ويملك ويدبر ، وقد بيّن الأنبياء لأقوامهم هذا أتم بيان ، ومنهم إبراهيم ((إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ واتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وتَـخْـلُـقُـونَ إفْـكـاً إنَّ الَذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ واعْبُدُوهُ واشْـكُـرُوا لَـهُ إلَـيْـهِ تُرْجَعُونَ)) فبين أن الله هو الرزاق ، فهو إذن المستحق للعبادة دون سواه ممن لا يملكون لأنـفـسـهـم - فـضـلاً عن غيرهم - رزقاً ولا نفعاً ولا ضراً، وقال: ((أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلاَّ رَبَّ العَالَـمِـيـنَ * الَذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ * وإذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ...)) وأمثلة ذلك كثيرة.

2 - التصريح بقصد النصيحة وأنه لا هدف للداعي إلا نفع المدعوين وأنه لا يريد على ذلك حظا من الدنيا :

إن إعـلان الـداعـيـة عـن هــذا للمدعوين من شأنه أن يلين قلوبهم ، ويدعوهم إلى تأمل ما يُدعون إليه ، ولقد درج على ذلك الأنبـيـاء جميعاً ، فقال نوح : ((ويَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللَّهِ..)) وقـال هـــود: ((يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى الَذِي فَطَرَنِي))وفي سورة الشعراء ذكـــر الله :((ومَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ)) ذكرها عن نوح وهود وصـالـح ولوط وشعيب ، وقال محمد -صلى الله عليه وسلم-:((قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إنْ أَجْــرِيَ إلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)) .

وحكى الله عن إبراهيم أنه قال لأبيه :((يَا أَبَتِ إنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْـمَـنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ ولِياً)) فهـو لا يريد شيئاً من أبيه ، وإنما يخاف عليه من عذاب الرحـمن، فـيـكـون ولـيــاً لـلـشيطان ، وتأمل في العبارات التي نطق بها إبراهيم : (أخاف) و(يمسك) و(عذاب من الرحمن) تُلفها تعبر بصدق عما يكنه إبراهيم لأبيه.

3 - الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة :

وقد جاءت جلية في دعوته لأبيه وخطابه الرقيق الحاني المتدفق ليناً - وعطفاً ولطفاً ، اتباعاً للحكمة التي تقرب المدعو من الدعوة وتلين قلبه للاستجابة.

4 - التشنيع على المعبودات الباطلة وعابديها :

لما بين إبراهيم لقومه دعوته ، وألان لهم الخطــاب ، لعنهم يستجيبون ، وما زادهم ذلك إلا التمادي في باطلهم ، فما كان من إبراهيم إلا أن أظهر تهافت معبوداتهم وأحنق النكير عليهم ، فقال :((مَا هَـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَتِي أَنـتُــــمْ لَهَا عَاكِفُونَ)) فسماها تماثيل ولم ينعتها بوصف (الألوهية)، ولمـا ظهر له أنهم لا يعتمدون فيما فعلوا على حجة وبرهان قال لهم: ((لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)) وزاد فقال :((أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَـــلا تَعْقِلُونَ)) ولقد برهن لهم على سفههم ما سوغ في تهكمه بتصرفاتهم حيث سألهم: ((هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)) فإن أقل ما يقال في هؤلاء المعبودين أنهم لا يسمعون كعابدين فكيف يجلبون لهم نفعاً أو يدفعون عنهم ضراً؟

5 - التذكير بنعم الله على عباده :

جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ولذلك عنىَ الدعاة إلى الله بتذكير الخلق إحسان الله إليهم ليكون ذلك أدعى إلى قبول الدعوة فهذا هود يقول : ((واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)). وقال صالح :((واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً

فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)) وأما إبراهيم فقال :((أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ * الَذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ * وإذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * والَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ))

6 - التذكير بأيّام الله :

ما مـن أمــة تَخْلف في الأرض إلا وتنظر في أحوال من سلف من الأمم تتبع مواطن العبرة فيها، فتستفيد من الإيجابيات ، وتحذر من السلبيات ، وكان أنبياء الله يذكرون أممهم بأحوال الغابرين ممن كذبوا أو آمنوا ، فيذكرونهم بعاقبتهم ، وينذرونهم أن يحل بهم ما حل بمن كفر من أمم الأرض، لعلهم يتعظون أو يرتدعون، ولذا قال إبراهيم لقومه :((وإن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ومَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاغُ المُبِينُ)) أي فـقــد كذبت أممٌ أنبياءهم فحل بهم ما تعلمون من العذاب ، فإن فعلتم عوقبتم بمثل عقابهم، ومـــا على الرسول إلا البلاغ المبين.

7 - المناظرة والتدرج في إفحام الخصم :

قال ابن القيم في مناظرات إبراهيم : »وهو الذي فتح للأمة باب مناظرة المشركين وأهـــــل الباطل ، وكسر حججهم ، وقد ذكر الله مناظرته في القرآن مع إمام المعطلين ، ومناظرته مع قومه المشركين ، وكسر حجج الطائفتين بأحسن مناظرة ، وأقربها إلى الفهم وحصول العلم(1) »وسنذكر هنا مناظرتين وقعتا لإبراهيم، وذكرهما القرآن الكريم :

- الأولى : مناظرته لعبدة النجوم قال الله تعالى ((وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إنِّي أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وكَذَلِكَ نُرِي إبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إنِّي وجَّهْتُ وجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفاً ومَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ * وحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وقَدْ هَدَانِ... الآية)) إلى قوله ((وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ))*

لقد عني إبراهيم بإخوانه من الأنبياء بالتوحيد وإيضاحه،والاستدلال له أيما عناية،وسلك في سبيل بيان الحق ، وتزييف الباطل كل وسيلة تؤدي إلى ذلك، ومنها هذه المناظرة التي قامت بينه وبين قومه لبيان حقيقة ما هم عليه من الضلال.

فأنكر على أبيه اتخاذ الأصنام آلهة ، ولما أشرك قومه معه شدد في إعلان الفكر عليهم، وبين أن ما هم فيه ما هو إلا ضلال يبُين عن نفسه ، وذلك ليثير

عواطفهم ، ويدفعهم إلى التفكير الجاد العميق فيما هم فيه ، وكان إبراهيم قد بصره الله بالدلائل الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى ، فآراه آياته في ملكوته ، ليعلم حقيقة التوحيد ، أو ليزداد علما به ، ويقينا إلى يقينه.
وأرشده إلى طريقة الاستدلال بها على المراد من العباد.
ودخل إبراهيم مع قومه الصابئة الذين يعبدون النجوم ، ويقيمون لها الهياكل في الأرض ، دخل معهم في مناظرة لبيان بطلان ربوبية هذه الكواكب المعبودة، ولم يشأ أن يقرر التوحيد مباشرة. بل جعل دعوى قومه موضوع بحثه ، وفرضها فرض المستدل لما لا يعتقده ، ثم كر عليها بالنقض والإبطال ، وكشف عن وجه الحق ، فحينما أظلم الليل ورأى النجم قال : هذا ربي فرضا وتقديرا ، وقال : أهذا ربي ، فلما غاب عن أعينهم علم أنه مسخر ليس أمره إليه ، بل إلى مدبر حكيم يصرفه كيف شاء ، ثم انتقل بهم في البحث إلى كوكب هو في أعينهم أضوأ وأكبر من الأول ، وهو القمر ، فلما رآه قال مثل مقالته الأولى ، فلما ذهب عن أعينهم تبين أنه ليس بالرب الذي يجب أن تألهه القلوب، ويضرع العباد إليه في السراء والضراء ، ثم انتقل بهم إلى معبود لهم آخر أكبر جرماً من السابقين فلما أفل، قال: يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، فاستدل بما يعرض لها من غيرها على أنها مأمورة مسخرة بتسخير خالقها.
فإذا كانت هذه الكواكب الثلاثة في نظرهم أرفع الكواكب السيارة وأنفعها قد قضت لوازمُها بانتقاء سمات الربوبية والألوهية عنها ، وأحالت أن تستوجب لنفسها حقاً في العبادة فما ســواهـــا من الكواكب أبعد من أن يكون لها حظ ما في الربوبية أو الألوهية ، ولذا أعلن إبراهيم في ختام مناظرته براءته مما يزعمون من الشركاء ، وأسلم وجهه لفاطر السماوات والأرض ومـبـــدعهما ، دون شريك أو ظهير ، وضمَّن إعلان النتيجة الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية ، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله) فإن ما فيه من البراءة من الشركاء نظير نفي الألهية الحقة عن الشركاء في كلمة التوحيد ، وبهذا يكون إبراهيم قد سنَّ للدعاة إلـى الله أسـلـوبــا متميزا في دعوة المنحرفين ، وذلك بالتنزل معهم بالتسليم بأباطيلهم فرضاً ، ثم يرتب عـلـيـهـا لوازمها الباطلة ، وآثارها الفاسدة ، ثم يكر عليها بالنقض والإبطال ، فإن الدعوة إلى الحق - كما تكون بتزيينه ، وذكر محاسنه - تكون بتشويه الباطل ، وذكر مساويه ومخازيه (بتصرف من مقالة الشيخ عبد الرازق عفيفي في مجلة التوعية الإسلامية عدد 6 ، 7).
الثانية : مناظرته للملك في قوله تعالى _((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَذِي يُحْيِي ويُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِـــنَ الـمَـغْرِبِ فَبُهِتَ الَذِي كَفَرَ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ))[البقرة:258].

لقد جادل الملكُ إبراهيم في ربه ، وفي ذكر الرب وإضافته إلى الضمير العائد على إبراهيم تشريف لإبراهيم وإشعار بأن الله سيتولاه وينصره.
ولماذا يجادله؟ لأن الله آتاه الملك ، فحـمـلـه كبره وبطره على طلب المخاصمة ، ولم يكن بسبب إيثاره الحق وطلبه له.
وكان الملك قد طلب من إبراهيم عليه الـسـلام أن يقيم له الدليل على وجود الرب الذي يدعو إليه ، فقال إبراهيم : »ربي الذي يحيي ويميت« أى أن الدليل على وجوده هو : هذه المعجزة المتكررة الظاهرة المستترة ، مـعـجــزة الحياة والموت ، عندئذ قال الملك »أنا أحيي وأميت« فآتى برجلين استحقا القتل فأمضيه فـي أحدهما دون الآخر ، فأكون قد أحييت الثاني ، وأمت الأول ، وهذه مكابرة صريحة، وعناد ظاهر ، يعلمه كل ذي عقل ، ولذلك ترك إبراهيم الخوض معه في مكابرته ، وجاءه بواقعة لا يحير معها جوبا ، قال : »فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب« أي إذا كنت قادراً على الإحياء والإماتـــة، وهما من صفات الرب ، فيلزم أن يكون بمقدورك التصرف في الكون ، وأن تأتي بالشمــس من المغرب ، عندئذ بهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين.
إن انتقال إبراهيم من دليل إلى آخر دون مناقشة لإجابة الملك الساذجة ليس عن هزيمة ؛ لأن حجته كانت قائمة ، إذ إبراهيم وكل عاقل يعلم أن المراد حقيقة الإحياء والإماتة ، أما ما فعله الملك فأمر يقدر عليه كل أحد ، حتى إبراهيم كان يمكن أن يقول له : إني أردت حقيقة الإحياء والإماتة ، أما هذا فأنا أفعل مثله ، ولكن إن قدرت على الإماتة والإحياء فأمت هذا الذي أطلقته من غير استخدام آلة وسبب ، وأحي هذا الذي قتلته ، فيظهر به بهت اللعين ، إلا أن القوم لما كانوا أصحاب ظواهر ، وكانوا لا يتأملون في حقائق المعاني خاف إبراهيم الاشتباه والالتباس عليهم ، فضم إلى الحجة الأولى حجة ظاهرة ، لا يكاد يقع فيها أدنى اشتباه.
وهذا الانتقال من أحسن ما يكون ، لأن المحاجج إذا تكلم بكلام يدق على سامعيه فهمه ، ولجأ الخصم إلى الخداع والتلبيس جاز له أن يتحول إلى كلام يدركه السامعون ، وأن يأتي بأوضح مما جاء به ، ليثبت ما يريد إثباته ، وهذا لأن الحجج مثل الأنوار ، وضم حجة إلى حجة كضم سراج إلى سراج ، وهذا لا يكون إلا دليلا على ضعف أحدهما أو بطلان أثره.

9 - استثارة الخصم :

والمقصود بذلك : تحريك نفوس المدعوين ، وتنبيه عقولهم ، ولفت أنظارهم إلى الأمر الذي يدعوهم إليه الداعية.
لقد فعل إبراهيم ذلك حين ترك كبير الأصنام بلا هدم (فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون) وذلك من أجل أن تدور في أذهانهم الأسئلة التالية؟
- من فعل هذا بآلهتنا؟

- لِم لمْ يدافع الصنم الكبير عن صغاره؟ وهل كان ذلك عن عجز أو عدم إدراك لما يقع حوله؟
- لِم لمْ يوقع الصنم. الكبير سوءاً بمن فعل ذلك ؟
ثم استشارهم مرة أخرى حينما جاؤا إليه يسألونه عمن أوقع ذلك بآلهتهم فقال :
- بل فعله كبيرهم هذا ، فنسكب التكسير إلى جماد لا يتحرك ، ليقولوا له مباشرة : إنه لا يفعل شيئاً ، وليقروا بضعف هذه الآلهة.
- ولم يكتف بذلك ، بل أمرهم أن يوجهوا إليها الأسئلة إن أخبرهم بمن أوقع بها ذلك ، ولذلك أجابوا بكل سذاجة : »لقد علمت ما هؤلاء ينطقون« وعند ذلك انطلق مبادرا »أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون«.

ثانياً الأساليب العلمية :

وهي كثيرة نختار منها :
1 - القدوة : لقد كان إبراهيم مثالاً يحتذى في الخير ، ولذلك وصفه الله بقوله ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)) أي جامعا للخير ، كلفه الله بأمور فقام بها خير قيام ((وإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ)) وكان الجزاء : ((إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)) فالسبب الذي أهله للإمامة إتمامه الكلمات التي ابتلاه ربه بها ، ومن أجل ذلك أمر نبينا -صلى الله عليه وسلم- باتباع ملته (ثم أوحينا إليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا) وأمرت هذه الأمة أن تأتسي بإبراهيم ومن معه ، لكونهم قدوة (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه) والأمر الذي نهينا عن الإقتداء بإبراهيم فيه استغفاره لأبيه »إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شيء« وقد تقدم ذكر بعض من صفات هذا النبي الكريم وأساليبه وأعماله وما كان به قدوة للمصلحين من بعده (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه).
2 - البداءة بالأهم : بدأ إبراهيم بالدعوة إلى توحيد العبادة ، وهو أهم ما يدعي إليه ، وأول ما يبدأ به (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون).
3 - اللين والشدة : وهذا ظهر جليا في دعوته لأبيه ، وفي دعوته لقومه ، فقد دعا كلا منهم باللين والاستعطاف ، لعل كلامه يتخلل قلوبهم ، ولينه يعطف أفئدتهم لقبول الحق الذي جاء به ، ولكن ما زادهم إلا عتوا ، فما كان منه إلا أن أغلظ لهم القول ، وشدد اللهجة ، ففي اللين قال :((يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً)) وفي الشدة قال : ((وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)) .
4- البراءة والمعاداة : التي تعني البراءة من الشرك وأهله واعتزالهم ، وهي أصل من أصول العقيدة ومن مستلزمات (لا اله إلا الله). قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : »أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله«

ومفاصلة خصوم الدعوة ارتفاع بالنفس والعقيدة إلى المستوى اللائق بهما ، فلا يستوي حزب الله الذى كتب الله له العزة والكرامة وحزب الشيطان الذي كتب الله له الذلة والهوان ، وفيها إشعار لأولئك الخصوم بأنهم على باطل ، وأن الأمر ما وصل بالداعية إلى المقاطعة إلا لحق يعتنقه ويدعو إليه ، فيكون ذلك ردعا لهم عما هم فيه. وفيها قطع لآمال أعداء الدعوة في الحصول على تنازلات من الدعاة ، يستدرجونهم بها.
وقد قال إبراهيم لأبيه حين استكنف واستكبر : (واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي...) وجعله الله في براءته من المشركين قدوة ، فقال : ((قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ)) . وقد اشتملت هذه الآية على أمور نوجزها فيما يلي :-
- أن البراءة قائمة على الإيمان بالله فمن كان مؤمنا بالله أحب في الله.
- أنها نهج الأنبياء ، فمن أراد النجاة فليلحق بركابهم ، ويستن بهديهم.
- أن البراءة ليست من أشخاصهم فحسب ، بل ومن آلهتهم ، وأفكارهم ، ومذاهبهم.
- أنها مستمرة علنية ، وليست مجرد شعور قلبي إلا عند الضرورة.
- أنها مما اتفقت عليه الشرائع ، وليست لهذه الأمة الخاتمة فحسب.
- أن دعامتها التوكل على الله والدعاء كما ذكر في ختام الآية ((ربنا لجيك رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ)) .
- أنه لا فرق في البراء بين قريب أو بعيد مادام قد وحد بينهم كفر أو شرك.
6 - الدعاء والتضرع : وهو السلاح الذي لا يحق للمؤمن أن يسير في ركاب الحياة بدونه، وقـد امـتـدح الله خليله بدعائه فقال : ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ)) وقد تقدم معنى (الأواه) ، ولـــذا تل أن نجد موطنا تذكر فيه دعوة إبراهيم إلا ويذكر معها جانب من تضرعه ودعائه ومن ذلك : ((رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً ...)) ، ((رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ)) ، ((وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)) ، ((وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ)) ، ((رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)) ، ((رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ...)) ، ((رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ...)). إلى آخر ما هناك من الدعوات المباركات ، التي تضرّع بها إبراهيم ، وخلدها القرآن ، فكان قدوة في اللجوء إلى الدعاء.
7 - تحطيمه للأصـــــام : لم يكتفي إبراهيم في دعوته بالكلمة والحجة التي أبطل بها حجج الخصوم ، بل عضد ذلك بعمل كبير ، أقدم عليه بشجاعة وعلو همة ، وهو تحطيم الأصنام التي تعلق بها قومه ، حتى صرفهم تعلقهم بها عن التفكير في حقيقتها ، والنظر في ماهيتها ، فأراد إبراهيم أن يبين عن ذلك

بالقول والفعل فكان بيانه القولي الذي شرحنا طرفا منه فيما تقدم ، وكـــان بيانه الفعلي بما أقدم عليه من تحطيم الأصنام ، وجعلها جذاذاً ((إلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إلَيْهِ يَرْجِعُونَ)) . والآية هذه تشير إلى مدي البيان الذي أراد إبراهيم إبلاغه لقومه ، فلم تأخذه فورة التكسير بتحطيمها كلها ، بل ترك كبيرها لا لعجز ولا لخوف بل لعلهم إليه يرجـعـــون ، فيحقق إبراهيم غرضه من هذا الأسلوب الدعوي الرائع ، وفعلاً لقد كان ما أراده إبـراهـيـــم حين قالوا : ((لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ)) وحينها انقض عليهم كالشهاب : ((أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً ولايَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)) وتحقق لإبراهيم مراده حين قالوا :((قَالُوا حَرِّقُوهُ وانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ)) فالآلهة تحتاج إلى من ينصرها ، ويدافع عنها ، وتحقق له كذلك حين (رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) ولكنه التعصب الذي ردهم على أعقابهم ((ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ)) .

2 - الهجرة : ذكر الله تعالي هجرة الخليل في ثلاثة مواطن فقال : ((ونَجَّيْنَاهُ ولُوطاً إلَى الأَرْضِ الَتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)) ((وقَالَ إنِّي ذَاهِبٌ إلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)) .

فهو أول من هاجر لله - كما ذكره بعض المحققين - وكانت سنة لمن بعده من الأنبياء وأتباعهم ، وممن عمل بها محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحبه ، فكانت هذه من ثمرات تلك التجربة الإبراهيمية ولونا من الإقتداء به.

إن الهجرة أسلوب يلجأ الدعاة إليه لأن أرضهم ما عادت تقبل الكلمة الطيبة،فهم يبحثون عن أرض طيبة تحمل دعوتهم ، أو لأن القوم المعرضين بدأوا يناوشون الداعية ، ويوصلون الأذى إليه فهو يفر بدينه من الفتن ((ومَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وسَعَةً)) .

الهوامش :

*] والصحيح أن إبراهيم في هذا الموطن كان مناظرا لقومه لا ناظرا بنفسه ويدل على ذلك:

أ - قوله تعالى: ((ولَقَدْ آتَيْنَا إبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ)) والمراد بالقَبْلية ما كان قبل النبوة على الصحيح، وأي رشد آتاه الله إبراهيم إن لم يكن موحداً مؤمنا بالله.

ب - قوله تعالى: ((ومَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ)) يقتضي نفي الشرك عن إبراهيم في كل مراحل عمره السابقة.

جـ - أن الله ذكر هذه الحادثة بعد إنكاره على أبيه وقومه ، مما يدل على المناظرة.

د - أن الله تعالـى ذكـــر القصة بعد أن ذكر منته على إبراهيم برؤية ملكوت السماوات والأرض ليكون من المؤمنين ، ولذلك ذكر الفاء التعقيبية ((فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ)).

ر - أن الله ذكر فيها ((وحَاجَّهُ قَوْمُهُ)) مما يدل على قيام المناظرة بينه وبينهم.
و - أن الله تعالى ذكر في خاتمتها ((وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)) فقال (على قومه) ولم يقل (على نفسه). وبهذا القول قال كثير من علماء السلف والخلف وهو الذي تدل عليه الأدلة.

الهوامش:

(1)جلاء الأفهام صــ 159.

من إيجابيات الدعوة الإسلامية »مقاومة التغريب«

د/ عابد السفياني

التغريب مـصـطـلـح يـسـتـعـمـلـه بعض الكتّاب للدلالة على جهود الغرب في نشر أفكاره وقوانينه ونظمه في أقطار العالم الإسلامي.

لقد بذل الكفار - على اختلاف مللهم ونحلهم - جهداً كبيراً في نشر التغريب الذي يمثله النموذج الغربي في مجالات الحـيــاة الـمـعـاصــــرة في التشريع والنظم الوضعية ، وفي مجال الإعلام ، والاقتصاد ، وفي مجالات أخرى مـتـذرعـا تارة بالديمقراطية ، وتارة بالمحافظة على حقوق الإنسان ، وتارة بالمشاركة في تنمية أحــوال »الـعـالم الثالث« بشرط الالتزام بتلك النظم نفسها.

وأكـبـر عـائـق يقـف في وجه »النموذج الغربي« هو تطبيق الشريعة الإسلامية ، ولهذا كانت جهود الكفار تبذل في تغيير مفهوم تطبيق الشريعة.

يقول المستشرق »جب« في كتابه »الاتجاهات الحديثة في الإسلام« ص 26 ،»ليس لدى الإنسان أنظمة كبرى في العقيدة ، والفكر ، والإرادة من شأنها أن تظل ثابتة أكثر من عشرة قرون«.

والبديل عن الشريعة الإسلامية هو بزعمهم انتشار العلمانية :

يقول أيضاً في ص 74 »إن انتشار العلمانية في البلدان الإسلامية طيلة المائة سنة الماضية قد جعل مثقفي المسلمين عرضة لنفس التأثيرات التي زعزعت التفكير الغربي بالنسبة للمسائل الدينية«.

ويرى هذا المسـتـشــرق أن تكوين »الرأي العام« على الطريقة الأوروبية عن طريق نشر التعليم »العلماني« أي الغزو الــفـكـري الأوروبي ، وذلك هو السبيل الوحيد لإدخال التطور والتحرر من سلطان الدين ، »وجهة الإسلام« ص 214-217.

وعندما يتحدث عن استبدال ، القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية ، وأن ذلك قد أدى إلى تمكن القوانين الوضعية وانتشار النموذج الغربي فإنه يحذر قومه من الاطمئنان القائم على هذه المكاسب ، ويطالبهم بإدخال الاقتناع بها إلى

قلب كل مسلم عن طريق التعليم ص 213 -214 وهذا الطريق هـــو »التغريب« وتغيير المفاهيم وأما تغير مفهوم تطبيق الشريعة ، فبدلاً من أن يكون مـفـهـوم الحكم بالشريعة شاملاً لجميع المجالات ، فلا بأس أن يكون قاصراً على جوانب معينة ، وبقية الجوانب يحكمها »التغريب« ، المهم أن يكون له سلطان مع الشريعة.
ولـذلـك يـقـول هـــذا المستشرق - وهو من المستشرقين الذين يعرفون هذا الدين كما يعرفون أبـنــاءهــــم كما قال الله - تعالى - عنهم : ((الَذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)) 2 - الأنعام يقول في كتابه السابق الذكر ص 121 ، »إن قبول القانون الإسلامي كان منوطا بقبول الشريعة الإسلامية ، كما كان ذلك النتيجة الحتمية لكون المرء مسلما« وبالنسبة للذين يتمسكون بهذا المعتقد تعتبر فكرة تعديل هذه القوانين الأساسية أو إلغائها من باب الكفر 123 - 124.
وأمامكم هذه العقيدة الإسلامية التي هي أكبر عائق في وجه التغريب ، لابد - كما يقول هذا المستشرق - من نقد تاريخي خاص ، »فعجز الإسلام من طريق اللجوء إلى عناصر قد سبقت نتائج التغريب وما على العالم الإسلامي أن يعيش من جديد مجمل التطور الذي صادف العالم الغربي الحديث«(1).
وخـلاصــة مــا يـخـطــط له الأعـداء للتمكين للتغريب هو أن يصبح النموذج الغربي سائداً ومنتشراً في العالم الإسلامي ، ويـكـفــي أن تـبـقى معه بعض أحكام الشريعة ، وأما مفهوم الـتـحــاكـم إلى الشريعة الإسلامية في جميع المجالات - والاعتقاد بأن ذلك واجب ، وأن قبوله شرط لصحة الإسلام فمفهوم يمكن أن يغير ويبدل، لـيـصـبـح مقـصـــورا على بعض المجالات، وحينئذ لا يكون قبول الشريعة - في جميع المجالات - شرطا لصحة الإسلام، ولا يكون التشريع من دون الله كفرا ، فيأمن حماة التغريب والقوانين الوضعية من وصمة الكفر ، وهذا ما يريده الاستشراق.
وللمشرعين من دون الله أن يحكموا ببعض أحكام الشريعة ، ويحكموا بالأنظمة القانونية ، ويأذنوا تارة للناس بأن يتحاكموا تارة إلى هذا وتارة إلى هذا ، فالشريعة والحالة هذه ليست حاكمة بإطلاق بل هي محكومة ، والدين ليس كله لله ، بل بعضه لله ، وبعضه لغير الله ، وحينئذ يستقر التغريب في العالم الإسلامي. ولاريب أن أئمة المستشرقين - وهذا أحدهم - يعرفون هذا الدين ، ويحسنون التخطيط للتمكين للنموذج الغربي في العالم الإسلامي ، وقد عملوا لذلك دهرا طويلا.
وإذا أدركنا هذا المكر والدهاء منهم علمنا أن من أعظم إيجابيات الدعوة الإسلامية مقاومة ذلـك الـتـغـريــب ، وقـــــد سخرت الصحوة - ولله الحمد - كثيرا من طاقتها وفي جميع المجالات لمحاربته وتحذير الناس منه ، وتنشأ في هذه المرحلة بالذات أسئلة كثيرة أمام حملات الإبادة التي يتعـــــرض لها المسلمون ، فيقول قائلهم : ماذا يريد الكفار منا؟ ألم تنتشر مذاهبهم وتحكم

قوانينهم ، وينتشر سلطانهم ، ويقطعو الطريق على المسلمين كل ما أرادوا أن يتميزوا بشريعتهم، بل ويلاحقوهم بالفساد عن كل طريق؟ والآن وفي هذه المرحلة بالذات - يقـتـلــون بـصـورة لم يسبق لها نظير ، ويهجرون، ولا خيار لهم، فإما الخضوع للقوانين الوضعية، وعبادة النموذج الغربي، والتمكين لشهواته، وإما تدمير الإنسان المسلم وحقوقه باسم حقوق الإنسان الغربي. والنتيجة أن المسلمين لا حق لهم في الحياة إلا تحت إشــراف حـقــوق الإنـســان الغربي، وانتشار مذاهبه وأفكاره، وهذا يمثل قمة الصراع بين الـنـمـوذج الـغـربي والشريعة الإسلامية ، فلا عجب أن تبذل الدعوة الإسلامية من خلال علمائها ودعاتها وأنصارها في هذا المجال كل غالٍ ونفيس ، وأن تستنهض همم المسلمين في كـل مـكـان لـمــنـاصرتها، وأن تنادي بإخراج آثار التغريب من مجال التربية، والإعلام، والاقتصاد ، وجميع المجالات التي حاولوا التغلل فيها.
ولـنضرب أمثلة محدودة تدل على حتمية الصراع بين الصحوة الإسلامية ودعاة التغريـب، وأن على جـمــيــع الـمـسلـمين مناصرة علمائهم ودعاتهم؛ ليتمكنوا من إقامة الدين الحق، وتقديمه لسائر الملل بـصـورته الشاملة الصحيحة ، لعل ذلك يكون سبباً في هداية الكثيرين منهم للإسلام.
المثال الاول :- يتسلط »النموذج الغربي« لا على الناس ويعطي باسم حقوق الإنـســان »الحق« للقوانين الوضعية ، لتتستر على مظاهر الشرك والكفر ، وتمنع الدعوة الإســلامية من أن تنتشر مبادئها، وتعبد ربها، وأن تظلل الأرض بتحكيم شريعته، وفـضـح دعاة التغريب، الذين يعتبرون قتل المجرم وحشية، وتحريم الزنى تدخل في الحرية الشخصية، والفوائد الربوية ضرورة اقتصادية.
المثال الثاني :- يبذل دعاة التغريب جهودهم لاستمرار الاختلاط والخلاعة ، ومحاربة التستر والفضيلة.
والـشــريـعـة الإسـلامـــية تأمر اتباعها بالتستر ، كما قال الله - سبحانه وتعالى -:((قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ويَحْفَظْنَ فَرُوجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)) [النور:30 -31].
وحرم الله سبحانه وتعالى الزنى بقوله ((ولا تَقْرَبُوا الزِّنَى إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً)) [الإسراء:32].
فهل يقتنع الكفار الغربيون، وغـيـرهـم مـــن دعــاة التغريب بأن يسلمو ويتبعوا الشريعة الإسلامية ، وينبذوا الجاهليات التي زينوها للناس؟
وهناك أمثلة أخرى في مجال الاقتصاد وغيره من المجالات لا يتسع المقام لذكرها.
ولقد كان من جهود الدعاة والعلماء والمصلحين أن يبينوا للناس أحكام الشريعة ومقاصدها، ووجــوب الـتـحاكم إليها ، ونبذ ما سواها والكفر به ،

ودعوة الكفار للإسلام ، ونصحهم وجدالهم بالتي هي أحسن، وقد استفاد الناس من جهود الصحوة الإسلامية التي تواترات بها الأخبار في كل مكان ، والتي أصبح همها إحياء صفات النموذج القدوة - جيل السلف الصالح - ليكون منهجهم هو الطريق العملي لمقاومة آثار النموذج الغربي ، وقد تربى كثير من المسلمين - ولله الحمد - على هذه الصفات، وانـتـشـرت طــريــقـــة السلف في مجال الاعتقاد، والتربية، والتعليم ، والصبر ، والورع ، والعطاء ، والبذل ، والولاء ، والبراء، ونشر الدعوة ، والاحتساب ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتعاون على مناصرة الدعوة، وحذر العلماء من الجاهلية الحديثة ومسائلها وقوانينها، ودعوا إلى وجوب إزالتها وتـغـيــيـرها، وأجمع العلماء أيضاً في هذا العصر على وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في جـمـــيـع المجالات، وانتشرت - ولله الحمد - جهودهم عن طريق الكتب، والمقالات ، والأشرطة ، والبحوث العلمية ، والإفتاء والرسائل العلمية ، والمجلات الإسلامية ، وهذا قليل من كـثـير أشير إليه مجرد إشارة لأذكّر بالجهد المبارك الذي بذلته الدعوة الإسلامية في مقاومة التغريب، متمنين لجهود العاملين لنصرة الإسلام التوفيق لمزيد من العمل والصبر حتى تزول آثار التغريب من العالم الإسلامي من كل مجال دخلت فـيــه ، ويحل محلها الأحكام الشرعية والاعتقادات الصحيحة ، ومن المعلوم أن من أحب شـيـئــا تمسك به ، وقدمه على غيره ، وأن من أبغض شيئا تركه ، فيجب على جميع الدعاة بـيـــان الحق للناس ، حتى يؤمنوا بأن الله هو وحده المستحق للعبادة ، وأن شريعته هي الحاكمة على أمورهم بإطلاق ، فيحبوا الله سبحانه وتعالى ، ويحبوا شريعته ورسوله - صلى الله عليه وسلم- : ((قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [آل عمران:31] ، ويبينوا لهم ويبشروهم بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله.

وفي الـوقــت نـفسه يجب عليهم أن يحذروهم من أسباب الشرك والكفر وآثاره وقوانـيـنـه، فـيـبـغـضــون آثار »التغريب« والقوانين الوضعية وجميع مظاهر البدع والشرك ، القديم منها والجديد، ليعرف ذلك الجميع، وعلى الدعاة إلى الله والمصلحين بذل الجهد والصبر حتى يـجـتـمـع الـنـاس عـلـى عبادة الله وحده بلا شريك، ويحكموا شريعته في جميع أمورهم، وحتى يزول سلطان الجاهليات والأديان الباطلة والفساد الذي صنعته وزينته للناس الأفكار المنحرفة والأهواء المضلة ، ويكون الدين كله لله ، ولا يكون منه شيء للأرباب المتفرقين ، وللشرائع المـتـفــرقة ، كما قال يوسف -عليه السلام- وهو يبين هدف دعوته للناس :((يَا صَــاحِــبَـــيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنـتُــمْ وآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ))[يوسف:39،40].

الهوامش:

(1) الاتجاهات الحديثة في الإسلام 175 ، وانظر مناقشة هذه الأفكار بالتفصيل في كتابي المستشرقون وموقفهم من ثبات الشريعة.

نصوص شعرية

عبوس

عبد الوهاب عبد الله

- أ -

لماذا أريد؟!
لماذا الهدير يُمزِّق ضعفَ الوليدْ؟
ويبغي المزيدْ!!
ويُنِبت جمرَ الوريدْ!
أيبقى اللهيبُ على بابنا ينتظرْ؟
ألم ينتصرْ؟
أيَخنقُ عاصفةَ الجمر صمتٌ أشِرْ؟!

- ب -

هــــــــراءٌ
صباح السلامْ !!
وريشُ الحمائم يا برقعاً
قاتماً في الظلامْ
هــــــــراءٌ
صباحُ الكلامُ
أيصحو المسافرُ عند اصطدامِ
السفينة؟
ويحظى من الرحلةِ الحالمةْ
بماءٍ وملحْ !!
ويَطرحُ عن كاهليه شجونَهْ
ويغفو بقاع المحيطِ
ويُكفى المئونةْ!
سلامٌ لعصف الرياحْ
سلام يُهُزُّ جذوعَ المطرْ
سلامٌ لموج الرمالْ
سلام يبث الدماءَ
حريقَ السؤالْ

هــــراءٌ هــــراءٌ
هراءٌ صباحُ السلامْ
سيورقُ فينا صباحُ اللهيبْ
ويَنتحرُ الليلُ فوق الكثيبْ
ويعلو الحبيبْ
ليخضب من دِمِه... قدميهْ.

نصوص شعرية

مدرستي الكبرى

الشيخ : عائض القرني

أنــا الـحـجـــاز أنا نجد أنا يـمـــن ... أنــا الجنوب بها دمـعـــي وأشجاني
بالشام أهلي وبـغــــــداد الهوى وأنا ... بالـــرقـمـتـين وبالفـسـطـــاط جيـراني
وفي ربـى مـكـــــة تـاريـخ مـلـحـمة ... على ثـراهــــا بنـيـنـا العالم الـفـانـي
دفنت في طيبة روحـــي ووالـهـفـــي ... في روضة المصطـفــى عمري ورضواني
دمي تصبب في كـابــول مـنـسـكـبـاً ... ودمـعـتـي سـفـحـــــت في سفح لبنان
فـأيـنـمـا ذكـــــر اسم الله فـي بلـــد ... عددت ذاك الحمى من صلب أوطاني
والوحي مدرستي الكبرى وغــار حرا ... مـيـــــــلاد فجري وتوحيدي وإيماني
بــدر أنـــا وسـيــــوف الله راعفـة ... كم حـطـمـت من عـنيـد مـارد جاني
كـتـبـت تـاريخ أيـامــي مـرتـلـــــة ... فى الــقــادسـيـة لا تـاريـخ شــــروان
ومــــا اســتـعـــرت تـعـالـيـمـا ملفقة ... مــن صـــرح واشنطن أو رأس شيطـان
ومــــا سـجـدت لغـيـر الله في دعـــــة ... ومــا دعــــوت مـع مـعـبـودنـا ثاني
ومـــــا مـددت يـدي إلا لخالـقـهـــا ... وما نـصـبـت لـغير الحق مـيـزانـي
فقبـلـتـي الكـعـبـة الـغـراء يعشقـهـا ... روحـــي وأنوارها في عـمـق أجـفـانـي
ولـيـس لى مطـلب غـير الذي سجدت ... لـوجـهـه كائـنـات الإنـس والجـان
لـيـت الـمـنـايا تـنـاجـيـني لأخبرهـا ... أن الـمـنـايـا أنـا لا لـونـهـا الـقـــانـي
لـيــرم بـي كـل هول فـي مـخـالـبـه ... مـا ضـرنـي وعـيــون الله ترعـــانــي
ممـــزق الثـوب كاسى العرض ملتهبٌ ... أنـعـــى الـمـخـاطر في الدنيا وتنعاني
وعـــــزم عـمـــــــار في دنيا فـتـوتـه ... أسـقـــي شـبــابي من ينبوعه الداني
عـصـى الكـلـيـم كـفى كي أهش بها ... عــلــى تـلامـيـــذ فـــرعون وهامان
في حسن يوسف تاريخـي ومـلـحـمتي ... من صنع خالد لا من صـنــع ريجان
داود ينـسـج درعــــي والوغى حمـم ... لا يـخـلـــع الــدرع إلا كف أكفانـي
دعـنـــي ألـقـــن قـــومـاً ما لهم هِمَم ... إلا عــلـــــى العزف من دان ومن دان
قوم مخــازنهــــم نهب ومطعـمـهـــم ... سلبُ موكـبـهـــم مــن صـــف فـئران
يا جيـــــل يا كـــل شهم يا أخا ثقة ... يــا ابـــن العقـيـدة من سعد وسلمان

يا طارقاً يـا صلاح الدين يا ابن جلا يا عين جالوت يـا يرمـوك فرقاني
يا بائـعـي الأنفـس الشماء في شهب مـن الـرمـاح على دنيا سجستان
يا من بنوا المجد من أغلى جماجمهم في شقحب النـصـر أو في أرض أفغان
يـا من سقوا دوحة الإسلام من دمهم مـن كل أروع يوم الروع ظـمـآن
يا صـوت عـكـرمـة المبحوح يقطعه قصـتف الـعـوالـي من سمر ومران
هـيـا إلـى الله بـيـعـوا كـل فانية فـصـوت رضـوان نـاداكـم ونـاداني

كامب أريحا

التحرير

في الوقت الذي كان » جنين « السلام الذي سمى »بغزة ، وأريحا : أولا« يخرج إلى النور ويرى الحياة ، كان أبواه يمهدان لحفلة القدوم بطريقة مختلفة.

الأب الإسـرائـيـلـي هـو الـطـرف الأقـوى والأغـنـى والأقدر على رسم خريطة الأحداث وتضاريسها، بـيـنـمـا كـانت المنظمة الأم - كالعادة - تتقن فن الوقوف في الجانب الخاسر 000 ، المنظمة/ الأم كانت تضع آمال القضية المركزية الأولى للعالم العربي وتاريخها وعرق الأمـة ودمـهـا وفداءها على طاولة المباحثات السرية حيث أنها تحلم » بـطـفـل، بعد أن شـارفـت عـلـى بـلـوغ سـن اليأس، وهي التي تعد الجميع بالمولود في كل عام، ومع كل مناسبة، لكن عوارض سن اليأس قاسية واضحة مؤلمة، وهذا ما دفع الأصدقاء قبل الأعداء إلى التهامس بأن السيدة / المنظمة عاقر.. عاقر.. عاقر....

حـتـى أشـد الـتـقـدمـيـين الماركسيين لم يستطع أن يخفي تشاؤمه وحنقه، فكتب خطاب استقالته إلى الزعيم، وأرفقه بقصيدتين تقول إحداهما :

» لم نعد قادرين على اليأس أكثر مما يئسنا
والنهاية تمشي إلى السور واثقة من خطاها «(1)

نـعـم الـجـمـيـع يـتـحـدث عن اليأس، وسنه، ومظاهره وأعراضه، وحتى يحافظ الزعماء التاريخيون على مناصبهم ومسؤولياتهم، فقد خرجوا بحل عبقري لم يسبقوا إليه.

هذا الحل يقول: لابد من إنجاب طفل حتى ولو كانت ملامحه إسرائيلية صارخة، وهكذا ولـد الـعـار في صيف لافح، وفي ليالي أغسطس الخانقة، وتسربت أنباء الوليد/ الفضيحة، الـذي اعـتـبـرتـه الأم دليلاً على عنفوانها، وعنوانا لقدرتها على البقاء حية، حتى ولو سـفـكـت في سبيل ذلك سبب بقائها ، وأس وجودها : قضية الشعب الفلسطيني. أما الولد المـتـعجرف فقد كان يتحدث بلهجته المعتادة شاتماً إياها مهدداً بوأدها أسلوبه الرديء... ومع أن المنظمة/ الأم أخذت في كيل الـثـنـاء والمدح، ورسم صورة مشرقة باهرة زهرية عن الغد القادم في ظل حراب صهيون ، فإن إسحاق رابين قد

أفسد عليهم متعة الاحتفال، وها هو يصرخ ، فيقول: »كثيرون حاولوا أن أعترف بالمنظمة قبل هذا الاتفاق، لكـنـي أقول لهم الآن: إن المرء لا يبيع قبل الحصول على الثمن، وقد حصلنا عليه. إنــنـــا وقـعـنا اتفاقا لن يزال بموجبه أي مستوطنة إسرائيلية ، وسنصر على إبقاء »القدس« عاصمة أبدية لإسرائيل ، ثم إنه في حالة تدهور الأوضاع ستعود الأمور على ما كانت عليه !!
إننا لن ندفع الثمن الذي دفعته ليكود في اتفاقيات كامب » دايفيد « وأضاف في كلمة ألقاها في 4سبتمبر 1993 في عهد وايزمال للعلوم وبعيد إعلان الاتفاق الإسرائيلي - الفلسطيني: » إن على اليهود أن يصيغوا السلام مع الأعداء ، وأحيانا مع أعداء سفلة «(2).
وفى ظـل الـحـديـث عن علاقة وتعاون ومشورة طفح بها اتفاق خروج الجنين إلى النور بدا واضحا من هو الـطـرف الـعـاجز المستسلم ، بل الخائر القُوَى الذي يصف جلاديه وقاهريه ومهينيه بأنهم شجعان وأصـدقـــاء ومتـفـهـمون للأوضاع وبين الطرف الآخر في هذه العلاقة المثيرة للجدل ، والذي يصف شريكه بالسفالة ، والنذالة ، والهمجية...

سفر الانهيار أم أُم الاتفاقيات؟ :

قــبـل الـدخــول فـي متاهات الاتفاق، وتفصيلات الاتفاقية، هناك حقائق ثابتة ناصعة، لا يستطيع الفريق المؤيد أو الفـصـيل المعارض للاتفاقية أن يحجبها ، أو يلغيها من الاطار التاريخي الواقعي والتـحـلـيلي للقضية الفلسطينية ، وهذه الحقائق والمعطيات لن يستطيع أحد أن يشكك فـيـهـا ، أو في أهـمـيتها.
ولـعـل المرتكز الأول الذي يصلح مدلفا للموضوع، ومفتاحا له هو أن يعي الجـمـيـع - مـؤيـدين ومعارضين - أن العدو الذي نتحدث عنه لم يـهـبـط عـلـيـنـا فـجـأة مـن سطح المريخ ، أو تجاويف المشترى ، إنه عدو حدثنا عنه رب الأرباب ، وخالق الأرض والسماوات ، عدو شاء المولى - عز وجل - أن يواجهه أهل هذا الدين، وهو في بداية مساره، ثم واجهوه مرة بعد مرة، وأثبتت كل هذه المواجهات حقائق صارخة ، لا تجدي معها تصريحات الساسة ، أو نخاسة السلام ، أو المتاجرين بالأوطان. حدثنا المولى عنهم فقال: ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليهود والَّذِينَ أَشْرَكُوا)) ، وصدق الله ، فقد أرانا إحدى آياته البينات الواضحات في هذا العصر حينما أذاق الله أمة الإسلام الشاردة ألوانا الهول والذل على أيدي الصهاينة اليهود، الذين طردوا المستضعفين وحرقوا الديار، وجزروا الآمـنـين، واستولوا على بيت المقدس ، وحرقوا المزارع ، وشردوا الأحرار ، وظهر حقدهم وعــداؤهــم لهذا الدين وأهله ، كما أبانت الآيات أن المكر يجمع أهل الكتاب ، ولذا جاء النص القرآني المعجز جامعاً لهذين الفريقين معاً ، وهي آية أخرى تحققت في هذا العصر ، حيث لم ير تاريخ البشرية تعاوناً وتنسيقاً بين اليهود والنصارى كما نرى اليوم ، وصدق الحق القائل : ((يا أيها اللذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ومَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإنَّهُ مِنْهُمْ إنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ

الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ)).
أمام هذه الآيات المزلزلة ينبغي أن نعرض القضية برمتها :
- قضية الحلف اليهودي النصراني ، الهادف إلى تجريد الأمة من هويتها ومعتقدها...
- ومصير المسارعين إلى أعدائهم ، يقدمون رقابهم ، لتجز في سلوك هستيري ، يرى النار جنة ، والهلاك نعيماً ، والموت حياة سرمدية...
- ومصير الصابرين العاملين بصمت ، لتحقيق وعد الله بفتح من عنده.
ثم على ضوء ما نستعرض حقائق قائمة ، تحمل تفاصيل المشهد التحليلي :
أولاً : إن الكيان الصهيوني على الأرض المحتلة يشكل أبشع عملية استعمارية في تاريخ العالم المعاصر ، حيث وظفت القوى الصهيونية والغربية المشاعر الدينية والاستعمارية في سبيل إقامة كيان لا يمت إلي المنطقة وثقافتها وهويتها بصلة ، في سبيل إضعافها ، وفرض السيطــرة الصهيونية الصليبية عليها. ورغم مرور ثلاثة أرباع القرن على هذه الإشكالية ، وبالرغم من نيل كثير من الشعوب المستضعفة والمستعمرة حقوقها - وآخرها الشعب الأسود في جـنـــوب إفريقيا - فإن مأساة الشعب الفلسطيني ظلت خلال الحرب الأولى والثانية ، والحرب الباردة وما تلاها تأخذ نفس النمط : دعم المشروع الصهيوني بلا نهاية من قبل الدول الغربية - لا سيما بريطانيا وأمريكا وروسيا - بطريقة تدل على أن المخطط المرسوم لا يتأثر حتى بأهم المعطيات الدولية والإقليمية.
ثانياً : إن شـعـبـــا قد طرد من أرضه وسلبت ممتلكاته في ظل المخطط الصهيوني وإن ثقافة يهودية توراتية عـنــصرية قد أزاحت ثقافة عربية إسلامية ، وأخذت تعمل يد التغيير في كل شيء انـطـــلاقا من صراع حضاري بين اليهودية المدعومة بفهم ورؤية إنجيلية ، وبين الإســـــلام الذي كان يعيش فترة تراجع رهيبة في بداية القرن... هذا الصراع الحضاري انتهى في جولته الأولى بانتصار اليهود بلا شك، وذلك لضعف المسلمين وشتاتهم، وبعدهم عن دينهم ، فكان طعم الهزيمة والانكسار يملأ الأفق : ضُيعت يافا وحيفا ، وانتصبت تل أبيب رمزاً يهودياً موحياً ، وكانت الفاجعة أن سقطت القدس بنصفها الغربي ، ثم سقطت كاملة بعد أقل من عشرين عاماً...
ثالثاً : إن المجتمع الدولي بأدواته الهزيلة المضحكة قد أدان دولة الصهاينة أكثر من مرة، وبـــدا واضـحا أن هذا المجتمع لا قيمة له ولا وزن إذا كان الأمر يتعلق بجزاري الشعوب الإســـلامـــيـــة، واتــضح للشعب الفلسطيني أنه لا سبيل لاستعادة حقوقه سوى بانتفاضة شعبية ، ترتكز على معاني الجهاد ، ومنطلقات الإسلام ليس إلا .

رابـعاً : صـادف بــروز الانــتـفــاضــة في عام 1987م إفلاس الحلول العلمانية، الوطنية والتلفيقية. لقد كانت منظمة التحرير الفلسطينية المثال الأوضح لحالة الإفلاس العلـمـاني، البعيد عن خط الإسلام ، ما شكلت حالة إدانة واضحة للواقع السياسي في العالم العربي، الذي يشكو من الاغتراب الفكري والسياسي ، والتبعية للقوى الخارجية ، وسوء القيادة، وقصر نظرها.
خامساً : لأول مرة منذ بدء الصــــراع يتبنى الشعب الفلسطيني - لا سيما في قطاع غزة - حلاً إسلامياً للمشـكـلـــة ورؤيــــة عقدية للصراع. ومن السخرية أن دماء شباب الانتفاضة وجهادها شكل الوقود الحقيقي للحل السلمي المطروح ، فالجميع يعرف أنه لولا الانتفاضة لما فكرت إسرائيل في طرح الحل السلمي ، بل ولما نادت بالانسحاب من غزة دون شروط.
إذن فهذه المعطيات الـــســابــقــة تدلل بصورة قاطعة على وجود هوة عميقة بين فهم إطار المــشــروع الـغـربــي/ الصهيوني المثقل بأنهار الدم وضحايا قنابله العنقودية ، وعجرفته العسكرية ، وآلته الصماء ، التي امتدت آلتها من تونس حتى المفاعل النووي في العراق ، وبين المقاومين من رجال الـمـنـظـــمة ، الذين نجحوا في تحويل القضية إلى قضية السيادة على نظافة المدن: وحصص الدراسة! وملاحقة المجاهدين! اللذين يرون في الصراع سلسلة حلقات الصراع الحضارى، الذي يتحدث الغرب ومنظروه عنه بلا حياء أو موارية، ويركز على أمور معينة بإيحائية شديدة ، تـصـل إلى حد المباشرة ، كما يحدث الآن في الحديث عن القدس ، التي تشكل رمزا للمالـيـزي ، كما تشغل بال السنغالي المسلم ، والتي جعلها الاتفاق سلعة كاملة للتفاوض في مرحـلـــــة لاحقة ، بينما يصرح الجانب الأقوى في وجه اللاهث عرفات : » القدس عاصمة أبدية لإسرائيل «!
لقد وصف أحد مساعدي عرفات الاتفاقية بأنها أم الاتفاقيات « اقتباسا من القطب العلماني والصديق الحميم لعرفات : صدام حسين ، بينما كان أشد المقربين من عرفات يشهدون - والحق ما شهد به حاشية عرفات الماركسية - بأن الاتفاق جزء من سفر يكبر يوما بعد يوم هو (سفر التنازلات)! :
» من سيُنزل أعلامنا : نحن أم هم
ومن سيتلو علينا معاهدة الصلح... «
والجواب إنه المناضل الختيار الأراجواز أبو عمار ، الذي يخاطبه زميله في التيه مضيفا:
» لم تقاتل لأنك تخشى الشهادة ، لكن عرشك نعشك فاحمل النعش كي تحفظ العرش يا ملك الانتظار.
إن هذا السلام سيتركنا حفنة من غبار «(3)
- ياسقى الله الكامب الأول!
ما بين الكامب الأول (كامب ديفيد) والكـامــب الثاني (كامب أريحا) هناك فاصل زمني يقارب الخمسة عشر عاما ، كما أن هناك مـسـاحــة عريضة من

التنازلات والاستسلام ، تجعل من (كامب ديفيد) إنجازا بكل المقاييس عند مقارنته بالاتفاق الأخير... ، وبالطبع فــإن عـرفــات وجوقته قد غيروا من إيقاع نشيدهم المبحوح، فبعد الهجاء، والـشـجـب، والاستنكار، والنواح، واللطم، والتخوين غدت الخيانة إنجازا، والهجاء مدحا، والشجب احتفالا ، والنواح » دبكة «!
الكامب الأول الذي رفضوه عادوا ليقبلوا بمعشاره أو أقل، وهناك أسباب لا يمكن إغفالها، تـدعـو المـنـظـمة وقيادتها المعزولة للقبول بهذه الاتفاقية ، وأهمها ضعف المنظمة ، وابتعاد الشارع الـفـلسـطـيني عنها ، بل وصل الأمر إلى القمة ، حيث استقال الشيخ السائح ، ثم هــدد ثـلاثـة من الوفد المفاوض بالانسحاب، ثم استقال محمود درويش ، وشفيق الحوت: عضوي اللجنة التنفيذية، للمنظمة مما دفع مجلة الأيكونمست البريطانية للقول:" لـو لـم يـعـقـد عرفات هذا الاتفاق اليوم فإنه حتما لن يكون المتحدث باسم الفلسطينيين بعد عــام واحد من الآن ، حيث أن شعبية المنظمة آخذة في التبخر«".
وفي الجانب الإسرائيلي فإن الاتفاق يحل لها العديد من المشكلات الخانقة، كوجود مناطق توتر مكتظة كغزة التي شكلت بؤرة صداع مستمر لإسرائيل ، وربما شكلت المناطق الجديدة »أرضا لإلقاء العناصر المشاغبة ، بدلا من طردهم للبنان ، حيث يضر هذا بسمعة إسرائيل ، التي تريد مأمورا فلسطينيا كعرفات ، يقوم بدور تأديب أعداء السلام« .
ولا شك أن الوضع المالي المتأزم للمنظمة ساهم في إسراعها إلى عقد صفقة يخرج بها فريق عرفات بأقل الخسائر ، وفي الوقت ذاته يرى بعض الفلسطينيين - لاسيما النافذين في المنظمة - أن عرفات أوجد هذه المشكلة طمعا في تركيع الشعب الفلسطيني ، وتجويعه للقبول بأي حل يكفل زعامته ! انطلاقا من الحكمة التي تؤمن بها الزعامات العربية منذ العصور الجاهلية »جوع كلبك يتبعك «.
لـكــــن التركيع بهذه الصورة لن يأتي بالنتائج المطلوبة، خصوصاً إذا عرفنا أن الـشـعــب الفلسطيني مسيَّس ، وصلب العود ، لا سيما في السنوات الأخيرة.
إن الاتفاقية التي وقعت تترجم مرحلة جديدة يُراد للمنظمة وعرفات أن تشارك فيها ، من أجل خـنـــــق الخيار الإسلامي ، وهذا ما صرح به المسؤولون الإسرائيليون الذين وضعوا الاتفاق كمخرج لتضاؤل عرفات وجماعته ، حيث العدو المشترك (كما يصورون) للمنظومة العلمانية والصهيونية يزداد ظهورا وشعبية. لقد رضي عرفات - الجائع للزعامة - بقبول دولة ال 400 كم 2 الـمـسـلـوبــــة السيادة ، والبعيدة عن القدس والتي أججت من حدة الخلافات في البيت الفلسطيني ، وامتدت لتشغل التفاعل الغاضب في قلب كل مسلم يتعبد الله بحب بيت المقدس ومسرى المصطفى -صلى الله عليه وسلم-.

لقد لخص شيخ فلسطيني هذه المأساة بقوله : » إن مصير المسلمين في فلسطين سيكون مشابها لمصير مسلمي البوسنة...« وإحقاقا للحق فإن علي عزت بوجوفتش يرفض حتى الآن اتفاقية الدويلة الممسوخة ، التي تشكل إنجازا بجانب دويلة أريحا ، حيث إن غزة مغرم ولست مغنما.
وهذا ما دفع إدوارد سعيد المفكر النصراني الفلسطيني الأمريكي للقول : »إن المرء يتساءل : لماذا هذا الضعف أمام المشروع الإسرائيلي الذي يتطلب نوعا من السجود المطلق أمام الإسرائيليين والأمريكيين إلي هذه الدرجة؟ ونحن شعب مقاتل... «
إنها مأساة القيادة المتعبة المريضة المضطربة ، المنحرفة البعيدة عن نبض شعبها ، التي خاطبها أحد قيادتها في لبنان قائلا : » إذا كنتم تعبتم من النضال فتنحوا لغيركم أو أتركو النضال لغيركم «

الهوامش :

(1) من قصيدة الشاعر الفلسطيني الماركسي محمود درويش بعنوان (للحقيقة وجهان والثلج أسود).
(2) وكالات الأنباء 4 / 9 / 1923.
(3) قصيدة : (للحقيقة وجهان والثلج أسود) لمحمود درويش ، وقد قدمها مع خطاب استقالته.

نظرة عابرة على واقع المسلمين المعاصر في الهند

أحمد بن عبد العزيز أبو عامر

(1)

المسلمون في الهند أكبر الأقليات في العالم ، إذ يزيد عددهم على 120 مليون نسمة في بحر من السكان الوثنيين من هندوس وسيخ وبوذيين وغيرهم. وكانت وجهة نظر بعض علماء ومفكري المسلمين في الهند قبل الاستقلال عدم تقسيم البلاد بين المسلمين وغيرهم ، وكان على هذا الرأي العلامة : أبو الكلام آزاد ، والعلامة : أبو الأعلى المودودي ، وغيرهما. لكن الرأي الآخر المنادي بالتقسيم وإقامة دولة مستقلة للمسلمين هي (باكستان) قد تَغلَّب فيما بعد ، وبقي من بقى من المسلمين في الهند أقلية ، مما أفقدهم الكثير من عناصر قوتهم. ومعاناتهم اليوم - التي سأشير إلى بعض منها فيما بعد -إنما هي نتيجة طبيعية لذلك التقسيم ، الذي انقسم بموجبه المسلمون في الهند إلى قسمين كما هو معروف. والحق أن المسلمين في الهند هم أحسن شعوبها خلقاً وتعاملاً ، ويتميزون عن غيرهم من شعوب القارة الهندية بسمات مميزة منها :

1 - الكرم وبذلهم ما يستطيعونه لإكرام ضيوفهم ، مع ما يعانيه أكثرهم من فاقة وضعف حال ، وهذه الخصلة اكسبتهم إعجاب غير المسلمين ، ودفعتهم للإسلام إعجابا بهذا الخلق الرفيع ، وقد ذكر (أبو الحسن الندوي) صوراً من تلك المواقف في كتابه : (المسلمون في الهند).
2 - حبهم للإسلام، ولنبيه عليه السلام، ولديار الإسلام لا سيما (الديار المقدسة)، وتمردهم على العنصرية والنزعات القومية والوطنية الضيقة ، وتفاعلُهم مع إخوانهم المسلمين معروف وملموس.
3 - امتيازهم بأخلاقهم وأدائهم لأعمالهم على أحسن وجه ، ومجانبتهم لرذائل الأخلاق في تعاملهم.
4 - بسبب كثرة الطرق الصوفية في بلادهم تأثر الكثير منهم بها وبما هى عليه من غلو في الصالحين والتمسح بالأضرحة والقبور ، وبخاصة العامة منهم من مريدي تلك الطرق المبتدعة.

(ثورة الهند الكبرى 1273 - 1857م) :

بدأ ضعف الدولة المغولية المسلمة الحاكمة آنذاك للهند منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، حينما بدأت الأحوال تتغير بتدخل (شركة الهند الشرقية) الإنجليزية ، التي سيطرت على معظم أنحاء الهند في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، وانحسر أمر المملكة المسلمة في العاصمة (دهلي) وبالذات في (الحصن الأحمر) ، وأمام هذا التدخل المريب تنادى العلماء والدعاة للجهاد ضد أولئك الغزاة ، وتفجرت الثورة وامتد لهيبها ، واستولى المجاهدون والأهالي على معظم الأماكن الاستراتيجية ؛ حتى كادت السلطة الإنجليزية تسقط أمام عنفوان الجهاد ، إلا أن الإنجليز ومن بقى معهم من الجيش الهندى استطاعوا أن يمسكوا بخناق المجاهدين ، وان يلتفوا عليهم عام 1273 هـ بما لديهم من إمكانيات عظيمة تفوق ما لدى المسلمين ، وبذلك تلاشت المملكة المسلمة من خارطة الهند ، واستولى الإنجليز على الحكم وانتهى حكم الشركة الإنجليزية. وقد سام الإنجليز المسلمين سوء العذاب ، وصادروا أموالهم ، وانتهكوا حرماتهم ؛ لأنهم كانوا في طليعة الثورة ضدهم ، فخططوا للقضاء على المسلمين قضاءاً مبرماً بوسائل منها: إبعادهم عن المناصب الحكومية ، ووضع نظام تعليمي يصادم دينهم وصارت كلمة (وهابي) لفظة يخوف بها المسلمون، فاستغل الهندوس ذلك الموقف الحرج للمسلمين ، فانتقموا منهم شر انتقام ، وتحولت حياة المسلمين الدينية والسياسية تحولاً كاملاً للأسوأ ، وبقى العامة لا قادة لهم حينما انقطع جل العلماء للحلقات والزوايا بينما الأعداء يستولون على الأراضي بالحديد والنار ، وصار المسلمون في حال لا تسر الصديق حيث أصبحو فئتين متناقضتين هما :
أ - فئة آمنت بالعلوم الغربية ، ورأت الأخذ بالحياة الغربية على علاتها سبيلا للنهضة.

ب - فئة أخـــــرى رأت التمسك بما ورثوه من علوم جامدة وأساليب متوارثة رأت أنه لا يمكن العدول عنها.
وكاد الدين يـضـيـع بين جاحد وجامد كما سنرى ، ويمكن تلخيص التيارات والحركات التي سادت بين المسلمين بالهند كما يلى :

أولا : حركة السيد أحمد خان :

لما رأى الرجل انـهـيـار الحكومة المغولية المسلمة ، وإخفاق الثورة الكبرى ، واطلع على أسباب ذلك الإخفاق ، ورأى سطوة المستعمر الذي سيطر على مقاليد البلاد وهوان شعبه ، ولما كان له سابق علاقـــة بالإنجلـيـــز بحكم عمله معهم أعجب بمدينتهم ؛ فصار يدعو لتقليدهم والسير على منوالهم ، والحث على التشبه بهم في عاداتهم وأساليب حياتهم. وقد أثر عنه قوله: »لابد من قبول الحضارة الغربية بكاملها حتى لا تزدرينا الأمم المثقفة ، فـأسـس كـلـية (عليكرة) الشهيرة، التي أصبحت فيما بعد جامعة كبرى، وشرع الرجل في تفسير القرآن مـحـرفـــا الكلم عن مواضعه ليوافق ما لدى فلاسفة الغرب ؛ فأنكر المعجزات والجن وتعدد الزوجات وغير ذلك مما هو معروف لدى أصحاب المدرسة العقلية.
- جوانب الضعف في منهاج الرجل : تبين من استقراء منهج الرجل مظاهر ضعفه المتمثلة فيما يلي :
1 - نقله المنهاج التعليمي الغربي بحذافيره من دون إخضاعه لمبادئ الإسلام ، وتجاهله لطبيعة المجتمع المسلم الذي يريد إصلاحه والنهوض به.
2 - اقتصر في منهاجه التعليمي على اللغة والآداب ، ولم يعن بالعلوم والفنون التطبيقية العناية الواجبة ، بل عارض ذلك بشدة بدعوى أهمية الثقافة الفكرية على غيرها ، وهو في ذلك واهم ولا شك.
لقد تـنـبـه الـسـيـد أمير علي الزعيم الهندي المسلم لم اعترى خطة السيد أحمد خان من قصور، ومع إيمانه بالمنهج التربوي الثقافي في الإصلاح إلا أنه أبرز الدور السياسي بتأسيه عام 1871 م (الجبـهــة الوطنية الإسلامية) للدفاع عن حقوق المسلمين بالهند ، وتحديد وضعهم السياسي بما يتـفـــق وعددهم ، وأهميتهم ، وتاريخهم وتمثيلهم عادلا. وفي هذه الظروف ظهر الزعيم المسلم أبو الكلام آزاد وكان له من ثقافته الإسلامية والعصرية ما مكنه من بلورة برنامج إصلاحي مـتـكامل لمواجهة مشكلات المسلمين الخطيرة ، وكانت مجلته (الهلال) لسان حال حزبه. ومـمـا يؤخذ عليه نزعته القومية التي جعلته يدعو إلى تعاون المسلمين والهندوس ضد بريطانيا.

ثانياً : مدرسة ديوبند الإسلامية :

وكان لمدرسة السيد أحمد خان ردود فعل معاكسة لدى بعض العلماء المسلمين ، الذين رأوا فيها خطرا على مستقبل الإسلام وأهله بالهند ، وضياعا لشخصيتهم بتقليدهم لأعدائهم ، لاسيما بعد سطوع نجم المدرسة السلفية

بشخصي الشيخ : أحمد السرهندي والشيخ : أحمد بن عرفان - اللذين استـشـهـدا فـي الجهاد ضد الإنجليز - فآثر أولئك المشايخ فتح مدارس دينية في القرى والأمصار ليس للحكومة عليها يد ، فكانت نواتها مدرسة ديوبند التي نمت وترعرعت برعاية أهل الرأي من علماء الكلام ومتعصبة الحنفية ، الذين فتحوا باب التأويل للحديث لترجيح مذهبهم، وتأثــروا بمثل الشيخ الكوثري الذي ناصب أهل السنة العداء ، وهذا ما ظهر في كتابات علمائهـــم : حبيب الرحمن الأعظمي ، ويوسف النبوري ، وأنور شاة الكشميري ، ولم يرضوا بــأي تعديل أو تغيير في مناهجهم لمواجهة عواصف التغريب والإلحاد، ومن متأخري هذه المدرسة (جماعة التبليغ) ومن أشهر رجالها الشيخ : محمد زكريا مؤلف (تبليغي نصاب) المحشو بالشركيات والطوام ، وكذلك محمد حسن السنهلي ، وحسين أحمد المدني ، وغيرهم : ومازال لكثير من علماء هذه المدرسة مواقف مغرضة وحاقدة ضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا لشيء إلا لكونها فضحت منهجهم القبوري وعقائدهم الشركية : ولمزيد من الاطلاع على هذا الاتجاه انظر كتاب (دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في القارة الهندية بين مؤيديها ومعارضيها) للأستاذ أبو الكرم بن عبد الجليل السلفي وكذلك كتاب الشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف عن مناوئي الدعوة السلفية بنجد ، وهما مطبوعان.

ثالثاً : المدرسة الوسطى الإصلاح :

لما استمر حال تلك المدرستين عـلـى ما هما عليه من منطلقات فكرية تخرجت أجيال من الاتجاهين يكره كل منهما الآخر ، مما جعل الشعب المسلم في الهند يضيق ذرعا بالشقاق والصراع بينهما ، فنادى نـفـــر من العلماء الصالحين وذوي الرأي بالاعتدال ، وضرورة الجمع بين الأصالة والمعاصرة فكــان نشوء (ندوة العلماء) عام 1310 هـ بعد ربع قرن من نشوء عليكرة وديوبند حينما اجـتـمــع أولئك النفر من العلماء برئاسة الشيخ محمد علي المونكيري الذي تبنى فكرة (ندوة العـلـمـــاء) وتولى تأسيسها ، ووضع قواعدها في جلسة حضرها 14 من كبار العلماء بمدينة (كانفور).وأيدوا الفكرة بالإجماع ، وتم التأسيس لها لتكون جبهة قوية لمواجهة أخطار الحضارة الغربية وقمع مفترياتها ، وردّ أسطورة (فصل الدين عن الحياة) وإعادة ثقة المسلمين بدينهم الخالد ومستقبلهم المشرق ، وأدرك الشيخ المونكيري أهمية إصلاح التعليم، وضـــرورة وضـــع نظام شامل متزن يجمع بين التربية والتعليم ، وبين أصالة العلوم الإسلامية وأهمية العلـوم التطبيقية ، فوضع خطة لتأسيس (دار العلوم) وتم عرضها على المجلس التأسيسي في17/1/1313فوافقوا عليها بالإجماع.

ولما اتسع العمل على جهود الشيخ المونكيري قيض الله له رجالا أكفاء ذوي خبرات وفي مقدمتهم العلامة شيلي النعماني الذي أشرف على نظام التعليم وعـلـى تنفـيــذ برامجه ومراقبة سيره ، فاستطاع أن يكسب لها شهرة

واسعة. وما لبثت هذه الجامعة فيما بعد أن خرجت أعلام الإسلام المعاصرين في الهند ، ومنهم : سليمان الندوي ، ومسعود الندوي ، وأبو الحسن الندوي ، وغيرهم كثير بن العلماء العاملين ، ومن أشهر مطبوعــات هـــذه المؤسسة : مجلة (البعث الإسلامي).

رابعاً : المدرسة السلفية ودورها في حفظ العقيدة :

حـيـنـمـا ضـعـف الاهتمام بالحديث وعلومه في البلاد العربية وكاد يتلاشى قيض الله له الحفظة من العلماء بالهند ، حيث أسست مدارس خاصة بالحديث وعلومه منها : مدرسة شاهي بمراد آباد ، والمدرسة الأحمدية في لهريا سراي ، والمدرسة الرحمانية في دربهنكا ، وغيرها.

ومن أشهر علماء الـمـدرسـة السلفية بالهند الشيخ العلامة : ولي الله الدهلوي الذي درس السنة على علماء الحرمين أمثال أبو طاهر الكردي ، و محمد حياة السندي أستاذ الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) وقد سار أبناؤه على نهجه السلفي ، واعتنوا بالحديث النبوي ، وهم : ابنه الشاه عبد العزيز الـــذي حل محل والده ، وكذلك إخوانه : رفيع الدين ، وعبد الغني ، وعبد القادر وكذلـك ابن أخيه الشاه إسماعيل بن عبد الغني ، وكان لهم دور كبير في نشر السنة ومحاربـــة البدع والمبتدعة. ومن علماء المدرسة السلفية الآخرين بالهند العلامة : صديق حسن خـــان ، والسيد ندير حسين ، وأبو الوفاء ثناء الله الامر تسري ، ومحمد بشير السهسواني، وغيرهم: ومن جهود أهل الحديث بالهند تأسيسهم (جمعية أهل الحديث) عام 1383 هـ ، وإنشاء (الجامعة السلفية) في بنارس 1385 هـ ، (مجمع البحوث الإسلامية) وهو تحت إشراف مركز أبي الكلام آزاد للتوعية الإسلامية ويرأس المركز الشيخ عبد الحميد الرحماني ومن أهم أهدافه العلمية ما يلي :

1 -إحياء نفائس تراث سلفنا الصالح.
2 - نشر الثقافة الأصلية المستمدة من الكتاب والسنة.
3 - الدعوة إلى العودة بالأمة للاعتصام بالوحيين ونبذ الشرك والكفر والإلحاد.
4 - معالجة القضايا الجديدة في ضوء الكتاب والسنة وبفهم السلف الصالح.
5 - محاربة البدع والأهواء والعادات المستنكرة في أوساط المسلمين وتبصيرهم بالحق ودليله ومن جهود الجامعة السلفية العلمية إقامـتـهـــا ندوة علمية عالمية عام 1408 هـ عن شيخ الإسلام ابق تيمية ومآثره التجديدية وأعماله الخالدة ، وفي عام 1412 عقدت مؤتمرا عاما للسيرة النبوية شارك فيها الكثير من علماء ومفكري الأمة الإسلامية ، وألقيت فيها العديد من الدراسات العلمية الهامة.

ومن أبرز شباب التيار السلفي في الهند صلاح الدين مقبول أحمد وعبد الرحمن الفريوائي، وأبو الـمـكـرم السلفي. ولهم أبحاث هامة عن دور الدعوة السلفية في الهند مذكورة ضمن مراجع هذا المقال ، ومن أهم مجلات الدعوة

السلفية بالهند مجلة (صوت الأمة) ويرأس تحريرها الشيخ مقتدى حسين الأزهري ، وهو وكيل جامعة بتارس السلفية بالهند.

الواقع الاجتماعي والتشريعي للمسلمين بالهند :

المجتمع المسلم هناك مجتمع محافظ متمسك بآداب الإسلام، لا سـيـمـا فـي الـنـــواحـي الاجتماعية التي هي محل اهتمام أعداء الإسلام لمحاولة هدم مجتمعهم وتغريبه.

ولقد اهتم الـمـسـلـمــون بالـمـرأة وتكريمها في الوقت الذي كانت المرأة الهندوسية فاقدة لإنسانيتها، بل قد تضطر لإحراق نفسها تفاديا لإهانات الهندوس.

ومع اهتمام المسلمين بتعليم الفتيان إلا أنهم لم يهتموا بتعليم المرأة كالفتى ، وكل ما حصل في بدء تعليمها أنها لقنت شيئا من القرآن الكريم لكسب الثواب ولأداء العبادة ، دون أن توجه إلى فهمه وإدراك مراميــه. ومن هنا وجد المستعمر والمبشرون ثغرة استغلوها بجلب فتيات متعلمات لتدريس بـنـــات الأمراء والأعيان ، وتربيتهن على الأسس الغربية ، ثم أقنعوا بعض الأهالي بتدريس بناتهــم في تلك المدارس التي تبث السم في الدسم ، ولذلك حث (كارسان دتاسي) الإنجليزي فـي خطبته الحولية عام 1871 على التعليم النسوي ، وحصر النتائج بقوله »إن النشء الجديد سيملك السبق في الفكر ، وينجو من ضيق الأفق ، ويلغي جميع التقاليد البالية« وتحت ضغط القيم الإسلامية السائدة بدأ تعليم البنات غير مختلط ، ولم يستطيعوا الدعوة للاختلاط إلا عام 1974 حيث تقّبل الناس ذلك وأصبح مألوفا.

وصدرت خطة التعليم الخمسية عام (1947 - 1951) ، ومن أهدافها : » أن تبذل الدولة الجهود بواسطة الدعاية التعليمية للقـضـــاء على التعصب في الأوساط الريفية ضد التعليم المختلط « وحينما استطاع دعاة التغريب استغلال تعاليم الإسلام للترويج لتوجهاتهم نجحوا في خداع المرأة والدعوة لفرنجتها - كما فـعـل دعاة التغريب في الشرق العربي أمثال قاسم أمين وبطانته - مما ساهم في تخلي الكثير من النساء المسلمات عن قيمهن الإسلامية تحت دعاية تحرير المرأة ، والدعوة لمساواتها بالرجـــل ، فشقين أولئك المخدوعات زمنا ، ولما رأينا نتيجة ذلك انحرافا وتدهورا ظهرت صحوة إسلامية في محيطهن؛ فتمردت الكثيرات على تلك الأحابيل ، وعدن إلى الله وتحجبن طاعة لله ورسوله ، فلله الحمد والمنة.

النظم التشريعية وكيف انحرفت :

بدأ الانحراف بالقضاء على التشريع الإسلامي علنا على يد الإنجلـيـز عـام 1772م حين أسند منصب رئيس القضاة لملك انجلترا. وبدأ التشريع الوضعى يأخذ طريـقـــــه لساحة القضاء. والمتتبع لحركة هذا الانحراف لا يخفى عليه

أن الإنجليز قد هيأوا الأسباب لنقض التشريع الإسلامي عروة عروة ، بدءا بتحديد مجال تطبيق الشريعة.
وبعد قرن غمر الإنجليز البلاد بتشريعاتهم الوضعية منذ بداية العقد السابع من القرن 19 وكانت سياستهم على حد قولهم : (بطيء ولكن أكيد المفعول)
ففى خلال 30 سـنـة من القرن الماضي وضعت كل التشريعات البشرية بعدما استفادوا من التشريعات الإسلامـيـة خوفاً من الصراع مع المسلمين.

ما هكذا تكون إرهابياً... أيها الأسمر!

د/ عبد الله عمر سلطان

وأخيرا عملت آلت التصنيف عملها ، حين أدرجت السودان في قائمة الإرهاب العتيدة...
هـذه الـقـائـمـة تصغر عاماً ، وتنمو بصورة مذهلة في عام يليه ، دون أن يكون هناك قانون ثـابــت يـحـكمها أو ناموس واضح يفسرها... ولهذا فإن على المشبوهين المسجلين في قائمة الانتظار أن يـتـحـلـوا بـشيء من الصبر ، وكثير من الدهاء ، حتى ينجوا من »العقوبة« التي تطاردهم... إن ناظر المدرسة الأمريكي - الذي هو طالب يتمتع بكثير من العضلات المفتولة - قــرر بـعـد أن انـتـقل من مقاعد الطلبة إلى مكتب الإدارة » الدولية « أن يسلط بعض » قوته وجـبـروتـه حـين يمـنـح شـهادة حسن السيرة والسلوك لزملائه... هذه الشهادة تمثل فكرة جميلة ، ويُمنح بموجبها العضو المنضم إلى محيط المجتمع الدولي شهادة حضارية على نبل سـلـوكـه، وبعده عن اللجوء إلى أسـالـيـب الإرهــاب والبطش ... صحيح أن الفكرة جميلة وحضارية وراقية إلا أن همساً يدور بين أوساط الأقران في » المدرسة الدولية « يـقـول: كـيـف يمكن لعضو ندّ لَنا أن يمارس علينا دور الأستاذية، بغض النظر عن نبوغه وقدراته وثروته ... إنها مسألة مبدأ ، فالأقران من الطلبة والأفراد ، والجماعات والدول متفاوتون حتماً... بعضهم نابغ، وثانٍ ورثَ ثروة لم يتعب في تحصيلها، وثالث جاد مجد غير موفق ، ورابع محظوظ... لكنهم في النهاية أقران مشتركون في مساحة معينة وثابتة ، ولذا فليس من حق التلميذ القوي أن يفرض جبروته على الضعيف لمجرد أنه مفتول العضلات ، أو أنه يملك أسلحة رعب ودمار ، ويذكر بأنه صبها على رأس الملايين من الأبرياء قبل خمسين عاماً في هـيـروشـيـمـا ونـاجـازاكـي؛ لـمجرد إثبات جنون الدمار المتمكن في ذاته، أو تكريس مبدأ الهزيمة والعار للجانب المستسلم تحت ظلال الدخان النووي المدمر!!
مـن الطبـيـعي إذن - والحـالة هذه - أن يتساءل المتابع لقائمة الإرهاب السنوية وأن يلقي بـعـض المـلاحـظـات بـعـد أن يتجاوز إشكالية شرعية

إصدار قائمة للإرهاب من قِبل جهة تتهمها جهات كثيرة بأن لها تاريخاً طويلاً في استخدام العنف وتكريسه ...
لـقـد خـلـت الـقـائـمـة الأمريكية من ذكر دولتين تمارسان الإرهاب وقذف الرعب في قلوب الأبـريـاء قبل صدور اللائحة في صورتها النهائية وأثناءه وبـعــده؛ فـإسرائيل قامت خلال صيف هذا العام بغزو بربري لجنوب لبنان بحجة ضرب حزب الرافضة المسمى بحزب الله في الوقت الذي شردت فيه أكثر من نصف مليون مدنى بريء ، وطاردت طائراتها الأطفال والنساء والشيوخ حتى مشارف الشمال السني..! دع عنك ما تردده منظمات حقوق الإنسان مـن إدانــة دامـغــة لـسـلـوك إسرائيل العدواني تجاه سكان الأراضي المحتلة، واستخدام أسـالـيب إرهابية مبتكرة، كتدمير منازل المشتبه بهم ، وتبنى المجتمع الدولى لقرار يجبر إسـرائـيـل على إعـــادة المبعدين المدنيين إلى ديارهم شاهدُ آخر على قبح السلوك الإرهابى الإسـرائيلي، الذي يصب جام غضبه على أبناء الأمة منذ أكثر من نصف قرن فإذا لم تكن إسـرائـيل إرهابية فمن الإرهابي إذن..؟؟ ربما يقول ساذج : الصرب الذين دمروا المساجد الآمنة وهتكوا عرض 100.000 امرأة، ومارسوا التطهير العرقي، وأبادوا الحرث والـنسل، وبـقـروا البطون ، ومثلوا بالأحياء والأموات...!
والجواب بـ كلاّ..« كبيرة جداً ، فالصرب الهمج لا تشملهم قائمة الإرهاب الأمريكية ، مثلهم مثل اليهود ، والسبب يتضح ببساطة حيث أن المقصود بهذه القائمة إرهاب الشعور النصراني - اليهودي ليس إلا!
* معظم الدول التي جاءت بها القائمة دول إسلامية ، ابتليت بجزارين وطغاة ، صنعتهم مبادئ الغرب وقيمه ، سواء أكانت وطنية ، أو قومية ، أو اشتراكية ، فالعراق يسدد جـرائـــم البعث، وليبيا عليها أن تقاسي من جراء انفصام شخصية القذافي، أما إيران فإن حكم الملالي لا يتورع عن استخدام العنف لتحقيق أحلام الخميني الهالك ، أو بروتوكولات حكام (قم). وقس على ذلك... إن القائمة إن شملت كوريا الشمالية فإنما يصب إدخالها في خانة الإسـقــاط النفسي القائل بأن الإرهاب هو سلوك يرتبط بالإسلام والشعوب التي تدين به!
إن أمـريـكـا بـأقـمـارهـا الصناعية، وطائراتها التجسسية، وعملائها المبثوثين فى الأرض، والـبـحـر ، والـجو ، عجزت عن أن تقدم دليلاً واحداً لهذا السلوك السوداني الإرهـابى، والمعروف عن أجهزة التجسس الغربية أنها تُتبع التهم بالأدلة حتى ترسخ التهمة بالنسبة للشعوب التي تحكمها ، وتثير الفزع في قلب الضحية والمتهم! فهل عجزت الأجهزة التي تـراقـب مـسـتـودعات تخزين الأسلحة ، ومواقع صواريخ محددة عن الإتيان بدليل مقنع ومبرر مقبول، أم أن الاتهام سياسي في أساسه كما قال (وليم كوانت) الخبير بشؤون الشرق الأوسط الذي يرى أن إدراج السودان هو إشارة سياسية ضاغطة للحد من التوجه الإسلامي في هذا البلد؟!

كان بإمكان (جون جرنج) أن يستمر في ممارسة تمرده، وما يصاحبه من تقـتيل، وتشريد ، وإرهاب ، جعل الجنوبيين أنفسهم يتعدون ، وينشقون عنه وعن حركته البربرية ، التي لا تراعي حقوقاً إنسانية أو أخلاقية. فـ (جرنج) صنيعة مجلس الكنائس العالمي مدعوم بصورة مكشوفة ، بالرغم من أنه يقود حركة تمرد ضد حكومة معترف بها دولياً ، ورغم ذلك فلم يرف جفن خبراء الإرهاب في وزارة الخارجية الأمريكية ؛ لأنه مضموم ضمناً إلى قائمة إسرائيل وصربيا لا ضر من ممارساتها الإرهابية ؛ طالما أن الضحايا من الذين يحملون شهادة التوحيد في صدورهم....

فالسودان الشمالي المسلم إذن لم يعرف كيف يفهم أن يكون محاكياً لرابين ، أو بيجن ، أو شارون ، أو ميلوسيفتش ، أو كارفاجيش ومن الفصيل « الحضاري « الذي يعلي من شأن حضارة الرجل المسيحي الأبيض ، والذي قد يقبل في زمرته أتباع الكنيسة السُمر ، كجون جرنج ، ونيريزي من قبل ، اللذين افتتحوا فرعاً كنسياً جنوبياً يهدد بخنق منابع النيل والانتشار الحضاري للإسلام في القارة السوداء. ولو رضي السودان الأسمر بزعامة عصابات « جون « فإن اسمه سيُـمـحـى مــن القائمة آلياً ؛ لأن من يريد أن يمارس الإرهاب كما يريد التلميذ الفُتوَّة ، فإن بإمكانه أن يفـعــل ذلك ، حتى ولو كان أسمراً !! أما إن كان أسمراً ومسلماً في الوقت نفسه فإن همساً يجـري تداوله في محيط الأسرة الدولية يحذر من الجمع بين سمرة البشرة ، والإسلام ، والقبول في المحيط الدولي المتحضر ، الذي لا يفهم إلا القوة والجبروت حين تصبان ضد سودان (أسـمـر مسلم مستقل) وهى صفات يستحق من يحملها أن يسارَع إلى رميه بشتى النعوت والتهم! ولكـــن السودان الأسمر لو انحرف عن توجهه فإنه حتماً سيكون مقبولاً بكل بشاعته وإرهابه ، حتــى ولو كان في قبح جون قرنق وأفراد عصابته إن القانون يريد إرهابياً كهذا ! يرحب به ويقول له : « هكذا تكون إرهابياً... أيها السودان الأسمر! «.

مجاهدو مورو لم يهزمهم الاستعمار لكن هزمتهم مائدة المفاوضات

التحرير

وردنا البيان رقم (21) (414هـ ، 1993م) من لجنة الإعلام الخارجي لجبهة تحرير مورو الإسلامية ، وفيما يلي عرض لأهم ما تضمنه ذلك البيان :

أكـد لـنـا الـتـاريـخ أن الاستعمار الصليبي - رغم جهوده - لم يهزم مسلمي مورو في ميدان الحرب ، ولكنه هزمهم في مائدة المفاوضات. لقد خاض مسلمو مورو أطول حرب في التاريخ كـمـا قـالــه المـؤرخ الأمريكي فيك هارلي في كتابه (همسة السيف) ، وفيما يلي مقتطفات وترجمة من الكتاب

المذكور: » تعتبر بلاد بانجسا مورو من أقدم ميادين الحرب في العالم ، فقد خاض مسلمو مورو حروباً مريرة استمرت 377 عاما ضد الحملات الأسبانية المتتالية الـتـي شـهـدتها الأجيال المتلاحـقــة، ولعل العالم لم يسجل حروبا دامية مريرة أطول من حروب مورو ضد الأسبان. وقد فشلت محاولات المعتدين للسيطرة على شعب مورو الشجاع وفي عام 1899 م ألقى المعتدون سلاحهم وغادروا المنطقة خائبين ذليلين ، وانتصر السيف على البندقية ، وبقي شـعـب مــورو وبقيت عقيدته حيث انتصر الإسلام على الصليب في أرض بانجسامورو «. هذه ترجمة ما قاله المؤرخ الأمريكي في كتابه المذكور. ومضى قائلاً : » وفي غرة القرن العشرين جاء الأمريكيون، وحاولوا عبثاً أن يخضعوا مسلمي مورو لحكمهم ، وعندما أدرك الأمريكيون أن مسـلـمـي مــــــورو لا يعرفون الاستسلام ، بل يحبون الموت (الاستشهاد في سبيل الله) ، ولن يتوقفوا عن الجهاد إلى آخر رجل منهم ، عرض عليهم الأمريكيون وقف القتال والمفاوضات معلنين أنهم لا يريدون السيطرة على البلاد ، وإنما يريدون التعاون في المجالات الاقتصادية والتعليمية والصحية ، فوافق المسلمون ، وبذلك نال الأمريكيون غرضهم ، ولم يهزموا المسلمين في ميدان الحرب ، ولكنهم هزموهم في مائدة المفاوضات ، ووقعت بلادهم تحت حكم الولايـــات المتحدة الأمريكية. وقد فشل الحديد والنار في قهر شعب مورو المسلم وإخضاعه، وأصبحت بلاد مورو تحت الحكم الأمريكي عام 1935 م ؛ بسبب دخول شعب مورو في المفاوضات مع الأمريكان ، ثم ضمتها أمريكا إلى الفلبين عام 1946 م حين منحت الأولى الثانية استقلالها في ذلك العام ، أي أن أمريكا أعطت شعب مورو للفلبين جزاء لمساعدتها لهم في حرق هذا الشعب «.

هكذا لم يهزم شعبنا المسلم أمام القوات العسكرية التي فاقت قواتها مئات المرات إمكانياته المادية ، ولكنه انهزم عن طريق الحيلة والمكر وبواسطة المفاوضات المقرونة بالخداع ، وقد ذكرنا ما تقدم تنبيهاً لكل من يدفعون جبهة مسواري الوطنية إلى المفاوضات ويشجعونها ، وتذكيراً لهم بأن شعب مورو فقد استقلاله بسبب الـمـفـــاوضات. صحيح أننا لم نعارض مفاوضات مسواري إعلاميا ولكن لم نشجعها ولن ندفعها إلى الأمام ، فإن قيل : إن عدم المعارضة نوع من التشجيع قلنا : عدم معارضتنا إعلامياً ليس تشجيعاً ، ولكنه سياسة.

مفاوضات الاستسلام وقضية مسلمي مورو :

مفاوضات جبهة مسواري الوطنية العلمانية الحالية مع حـكــــومة راموس الصليبية هي سلسلة من المفاوضات التي استمرت أكثر من ثمانية عشر عاماً ، لقد تفاوض مسواري مع جميع حكومات الفلبين المتعاقبة ابتداء من حكومة الديكتاتور مـــاركوس مروراً بحكومة زوجته إلى حكومة الثعلب المحتال راموس الحالية ، التي ليس لها هدف في مفاوضاتها معه سوى إقناعه

بالاستسلام ، وعرض منصب حكومي عليه ، ومبلغ من الأموال. والشيء المضحك أن حكومة الفلبين - التي تعتبر من أفقر الحكومات في الـعالم - ما زالت قادرة على دفع الملايين من الأموال للاحتيال والمكر والرشوة وشراء ضعاف الإيمان والنفوس كما فعلت أثناء الانتخابات الأخيرة فيما يسمى الحكم الذاتي ، فقد أنفقت الملايين من أجل إنجاح ذلك المخطط ، كما أنفقت أيضاً الملايين لشراء ضعاف النفوس من الثوار العلمانيين من أتباع مسواري ، وقد استسلم عدد من هؤلاء مقابل بعض المبالغ التي دفعت لهم ، فإلى الله المشتكى.
والله نسأل أن يوفق المجاهدين لقطف ثمار الجهاد ، وأن يكفينا شر الراكبين موجات الجهاد لمصالحهم.
والله المستعان.

محاضرات إسلامية

الصحوة الإسلامية وأزمة المثقفين في ديار الإسلام (1)

جمال سلطان

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وبعد :
فإن الحركة الإسلامية إذا شئنا التقييم الموضوعي النزيه ، هي أهم وأعظم حركة اجتماعية فكرية سياسية، شهدتها المنطقة الإسلامية، على مدار القرن الفائت كله، وذلك بالنظر إلى الفكرة التي قامت عليها هذه الحركة، ومحورها الإسلامي، الذي يمتاز بالأصالة والتجديد والإحـيـاء والـنـهـوض، وهـي الـمعاني التي سرقتها طوائف أخرى من تيارات الحركات الـعـلـمـانـيـة السياسية والفكرية والاجتماعية ، وحاولت نسبتها إلى ذاتها ورفعها شعاراً تتجمل به ، وتخدع به المسلمين ؛ وأيضاً بالنظر إلى البعد الجماهيري واسع النطاق لهذه الحركة ، ورغم أنها حركة بعيدة عن السلطة أغلب الأوقات ، فلم يعرف المسلمون حركة اجتماعية وفكرية وسياسية ، استطاعت أن تكسب هذا الامتداد الجماهيري الهائل ، رغم كل الضغوط والترهيبات ، والقمع بأنواعه المختلفة. إن قبول الحركة الإسلامية واجتذاب الناس خلف شعار أو فكرة - في حـــد ذاته - ليس دليلاً كافيا على صدقيتها ، ولكن أن تحشد هذه الجموع خلف لواء الإسلام من جديد ، وتتحدى شياطين الإنس ، في الداخل والخارج ، وتستطيع أن تحرك الناس بهذا القدر للمطالبة بعودة الإسلام ، دينا ودنيا ، عقيدة وشريعة ، مصحفاً وسيفاً ، فهذا - بكل المقاييس - حدث فذ.

أيضاً ؛ فالحركة الإسلامية حدث فذ وفـريـد ، من جانب الهبة الإلهية لأبنائها أن تمتد هذه الحركة وتياراتها ، لتخترق الحدود المصطنعة ، لكنها القاسية والصارمة ، بين أقطار الإسلام ، لتصبح الحدث الاجتماعي الأكبر فـي بلاد المسلمين كافة ، كلا ، بل الحدث البارز والمثير للانتباه والبحث والتفكير في قارات العالم أجمع ، وحينما وُجد إنسان يشهد أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .
أيضاً ؛ فالحركة الإسلامية حدث فذ ، من حيث أنها أول تيار فكري سياسي اجتماعى في العالم الإسلامي الحديث ، يقوم وينتشر، متطهراً من عقدتي: الغرب ، والتخلف ، وهذا ما أفزع دوائر الغرب ومراصده من هذه الحركة ، لأنه - لأول مـــــرة - يشهد مثل هذه الحركة الجماهيرية التي تعلن -في جرأة وثقة- أنها تقبل التقنيات والعلوم البحتة، فهي تراث إنساني مشاع؛ وتكفر بالمناهج والنظريات والقيم والأفكار الغربية ، ويقول أتباعها: إن في ديننا وإسلامنا غناءً لنا ، وفيه حاجتنا ، وهدانا ، ورشدنا ، ومنهاجنا للنهوض والتحضر.
ومن جانب آخر ؛ كانت الحركة الإسلامية ، متجاوزة لعقدة » التخلف « ، التي أثارت الخلل المنهجي والعقلي والسلوكي في أجيال عدة من بني الإسلام لا سيما مثقفيه ، فمنهم من رأى التخلف قدرنا ، ومنهم من جعله ناتج تراثنا ، ، ومنهم من جعله بسبب تمسكنا بديننا ، ومنهم من جعله بسبب ترددنا في الالتحاق بالغرب ، وها هي الحركة الجديدة، تقلب كل المفاهيم ، لتؤكد أن » التخلف « ليس قدرنا ، بل هو ما جـنــت أيدينا ، فإذا ما عدنا لما صلح به أولنا ، صلح واقعنا ، وارتفعت عنا وصمة » التخلف « ، كما أن التراث هو جهد الإنسان ، فيه ما في الإنسان ، من خير وشر ، وصحيح وباطل ، ونهضتنا لا تقوم إلا بعودتنا إلى تراث سلفنا الصالح ، ورفض ما عداه من الانحرافات والبدع ، والموبقات الفكرية والسلوكية والسياسية ، حاكِمُنا كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- ، ثم من بعد ذلك حاجات واقعنا الجديد.
ثم ها هي الحركة الجديدة ، تصل إلى تحديد منطلق التصحيح والنهوض ، وذلك بالتأكيد على أن سبب تخلفنا ، كان هو بعدنا عن الإسلام ، وهجرنا لمعالمه ، وخــــور العزائم في الدفاع عنه ، ومن ثم فإن سبيلنا هو إحياء الدين في النفس وفي الواقع ، والدفاع عن السنة ، وتعزيز إيمان المسلم بأن الإسلام هو السبيل ، والإسلام هو الحل.
وإذا كانت الحركة الإسلامية بهذا القدر من الخطر والشأن بشهادة خصومها ، بل بشهادة الواقع الذي لا يكذب أبداً ، فإنها - بالمقابل - كانت من أكثر الحركات ظلماً لدى بعض الباحثين والناقدين والمؤرخين ، وذلك لأسباب عديدة لا مجال للتفصيل فيها هنا ، ولكننا - في هذا المقام - نعتني على بعض الإسلاميين أنفسهم الذين استهوتهم موجـــات النقد ، ودعــاوي النقد الذاتي ، حتى غرقوا في بحاره ، وما عاد أحد يسمع عن » إيجابـيـــات « للـحـركة الإسلامية ، وأنا زعيم بأن تسعين بالمائة مما يكتب في تقييم الحركة الإسلامية

ينحى باتجـــاه إبراز » سلبيات الحركة « ، ويبقى نزر يسير ، يشير إشارات عجلى إلى » إيجابيات « الحركة ، وهذا خلل خطير ، على الأقلام الإسلامية بالذات أن تتنبه له ، وتعيره اهتمامها.
والآن من الضروري أن نحدد أبرز إيجابيات الحركة الإسلامية مما يتعلق بسياقنا الحالي ، ليس من قبيل التزكية ، أو مجرد التذكير بهذه الإيجابيات ، وإنما لما لهذه المعالم التي سنذكرها من أهمية كبيرة في كشف خلفيات العداء الذي أسفر عن وجهه أخيراً ببشاعة بين تيارات الثقافة المغتربة بمختلف فصائلها ، وبين الحركة الإسلامية ، وبعد ذلك ، نرصد بعض مظاهر »الفجور في الخصام الثقافي« لدى بعض المثقفين العرب وغير العرب من أبناء المسلمين ، في موقفهم من الإسلام والحركة الإسلامية ، ثم نخلص بعد ذلك برؤية مستقبلية للعلاقة بين الحركة الإسلامية والمثقفين في ديار الإسلام.

معالم الحركة الإسلامية وإيجابياتها :

أولا: الحركة الإسلامية عندما تقدمت إلى الواقع منذ عدة عقود ، لم تتقدم إليه ، بصفتها جمعية دينية،بالمفهوم الضيق لمعنى الدين،وإنما تقدمت بصفتها مشروعاً للنهضة والتجديد ينطلق من الإسلام وحده.
وبالتالي، فـظـهــور العمل الإسلامي بهذه الصورة لم يمكن العلمانية ومثقفيها من خوض معاركها مع الحــركـــة الإسلامية على أساس » التقسيم الأوروبي التاريخي « بين الحكم الثيوقراطي والحكم المدني، وبين رجال الدين ورجال النهضة والتجديد ، لأن الإسلاميين كانوا »رجال نهضة وتجديد« ، والحركة الإسلامية كانت حركة نهضة وتجديد ، وهذا ما أضعف كثيراً تشويشات العلمانيين العرب على الحركة الإسلامية ، وجعل حديثهم عن الكهنوت ، والثيوقراطية ، والحكم الديني ، ونحو ذلك ، أشبه بالمزاح أو العبث الثقافي ، فضلاً عن فقدانه أي تأثير على القطاعات الثقافية الواسعة وعموم الناس.
ثانياً : أن الحركة الإسلامية هي - بشهادة الواقع والخصوم - صانعة الموجة الثقافية الحالية في ديار الإسلام كافة ، ويستطيع القارئ المتأمل أن يلحظ ذلك الأمر على الفور ، من خلال الاطلاع على مختلف النشاطات الثقافية ، فكرية وأدبية وفنية ، إذ يجد أن »قضية الإسلام« و »الصحوة الإسلامية« ، هي القاسم المشترك الأعظم في النتاجات الثقافية المتصلة بهذه الجهود كافة ، سواء كان ذلك بالسلب أو بالإيجاب ، إن المعادين للإسلام والصحوة الإسلامية - أو أبناء الصحوة ورجالاتها ونساءها والمتعاطفون معها أو المتأثرين بها. في كل هذه الأحوال تبرز الحقيقة ناصعة ، لتثبت أن الحركة الثقافية الآن في ديار الإسلام تدور حول قطب واحد هو » الإسلام « ، وذلك نصر كبير للحركة الإسلامية ، رغم أن العديد من الإسلاميين أنفسهم لا ينتبهون إلى خطره وقيمته.

لقد كانت الثقافة في ديار الإسلام - حتى عهد قريب - تدور حركتها حول قطب » الغرب « والفكر الغربي والحضارة الـغـــــربية ، سواء بالتبعية ، أو النقد ، أو المواءمة ، المهم أن القطب صاحب الحيوية الثقافية الذي يصبغ الحركة الثقافية بصبغته - سلباً أو إيجاباً - كان هو الغرب والفكر الغربي والآن أصبح » الإسلام « هو القطب ، والفكر الإسلامي هو الذي يصبغ الحركة الثقافية بصبغته - سـلـباً أو إيجاباً - ، المهم أن الجميع الآن يدورون في فلكه ، أرأيتم حجم النقلة وروعتها؟

ثالثاً:إن مثقفي الحركة الإسلامية اليوم هم الرواد الحقيقيون للجماهير المسلمة، وهم الأكثر التصاقاً بالناس، وتعـبـيـراً عـنـهــم، وجـــاذبية لديهم وهم الأكثر نفوذاً في العقل العربي والإسلامي الجديدين بوجه عام.

والكلام هنا لا نقصد به أبداً ، التفاخر ، أو التفريط أو المباهاة ، فليس المقام مقام ذلك ، وإنما نحن نرصد » ظاهرة « ثقافية ، من حقنا بل من واجبنا أن نبني عليها ، ونضعها في اعتبارنا عندما ندرس حياتنا الثقافية الجديدة.

إن الحركة الإسلامية في ديار المسلمين لا تملك السلطة ، بل هي - غالباً - مضطهدة من السلطة ، ومع ذلك نجد إقبال الناس على الـدعــــاة - شباباً كانوا أو شيوخاً - بالغ الإدهاش ، وإقبال طلبة الجامعات والمثقفين على الكتب الإسلامية والمحاضرات طاغياً بوضوح ، حتى أنه لم يعد من قبيل المفاجأة أو الجديد أن يزور القارئ معرضاً من معارض الكتب الرسمية ، فيجد دور النشر العلمانية بل الشيوعية تضع في صدر أجنحتها كتب سيد قطب ، وأبي الحسن الندوي ، وأبي الأعلى الـمودودي ، ناهيك عن كتب السلف الصالح ، وقد شاهدت ذلك بنفسي في معرض القاهرة الدولي للكتاب.

بالمقابل ؛ تجد المثقف العلماني أو المتغرب ، قوميا كــان ، أو شيوعيا ، أو ليبراليا شبه معزول عن واقعه ، محروماً من الإحساس بجمهور الناس ، حانقاً على شعبه. إن أحداث الجزائر وما تلاها ، ، كشفت بوضوح أن المثقف العـلـمــاني ، قد تحول إلى عدو صريح للشعب ، وللجماهير ، يصرح باحتقاره للناس ، وبعدم أحقـيــــة الشعوب - الآن - في اختيار حكامها ، واتهام الجماهير بالتخلف والغباء ونحو ذلك.

كما تحولت لقاءات المثقفين العلمانيين إلى ما يشبه »نوادي أدبية« محدودة العدد ومحفوظة الوجوه ، المتحدث فيها هو المستمع ، ولا يخرج صوتهم - أبداً - إلى الشارع ، ولا ينفذ إلى عقول الناس وقلوبهم ، ولا يكاد يسمع الناس بأسمائهم إلا عبر الصحف الحكومية التي » أُجّرت« لهم ، نظير سب الإسلام والصحوة الإسلامية ورموزها وتشويهها ، ودعوة الناس إلى الانصراف عنها.

إن الحصار الذي يفرض الآن على الحركة الإسلامية - سياسياً وفكرياً واجتماعياً - هو بالمقياس الثقافي العام » مدمّر « و » قاتل « ، ومع ذلك ؛ تصل دعوة الحق وصوت الإسلام إلى الناس في كل مكان ، وتتأبي الحركة الإسلامية على الموات بفضل الله ورحمته.

رابعاً : الحركة الإسلامية وصحوتها أدت إلى بلورة الموقف الـثـقـافـي ، ودفعت الحركة الثقافية إلى درجات حادة من التمايز والوضوح ، وبالمصطلح الإسلامي ، فإن مسألة » الولاء والبراء « قد انتقلت بالفعل إلى الحياة الثقافية ، وفرضت على الرموز الثقافية حسم مواقفها وخياراتها ، بعد أن ذابت المناطق المحايدة ، وتمايزت السبل ، وأصبح الانتماء الثقافي محصوراً في وجهتين : الأصالة والإسلام من جانب ، والتقليد والتأورب من جانب آخر.
وفي الحقيقة فإن الطرح الجديد للحركة الإسلامية ، كان نقلة ضخمة فى الوعي الإسلامي الحديث كله ، إذ نادى الإسلاميون بأن الإسلام - والإسلام وحده - هو السبيل ، وهو الحل ، وهو حضارتنا ، وأن الإسلام كل متكامل ، ومنهاج شامل ، عقيدة وشريعة ، ديناً ودنيا، وأن للإسلام خصوصيته التي لا تشبه شيئا من أفكار البشر، ومناهجهم،ومذاهبهم.
هذا الطرح قطع الطريق على المزورين ، والملفقين ، الذين احترفوا تمييع المواقف الفكرية ، بمحاولات المزاوجة بين الإسلام والفكر الغربي ، ونظرياته السياسية والاقتصادية ، ونظمه التشريعية ، ونسقه القيمي ، وهي المحاولات التي أسهم فيها - بحسن نية - قطاع واسع من الـمفكرين المسلمين على مدار القرن الأخير ، زعماً أنهم - بذلك - يجملون الإسلام في عين الإنـســان الجديد ، ويستجلبون تأشيرة دخول للإسلام إلى نادي الحضارة الأوربية الطاغية!
وعلى الرغم مــن أن نفــراً من المفكرين المسلمين اليوم ، مازال أسير هذا الموقف الساذج والمهزوم ، إلا أنهم أصبحوا » ندرة « وشبه معزولين عن المجرى العام للصحوة الإسلامية الجديدة.
هذا الموقف والطرح الفكري الحاسم والواضح ، جعل المثقفين أمام أحد خيارين ، لا ثالث لهما ؛ إما الإسلام ، وإما الاغتراب ، وكان من نتائج ذلك على الصعيد العملي ، تعدد حالات التحول الفكري لرموز ثقافية كبيرة إلى الإسلام ، على ما شاب بعضها من بعض الغبش، وبالمقابل سفور عداء المثقف العلماني للإسلام، والانحدار الخطير في لغة الحديث عن الإسلام وتاريخه وشريعته ورموزه المقدسة، ومن ثم؛ نذكر ، ونؤكد ، أن ازدياد عنف مثقفي العلمانية والإعلام المؤازر لهم، وطغيان هجومهم على الإسلام ورموزه ودعاته ، هو مؤشر طيب، وإيجابي، وليس سلبياً، هو شعور » الظلاميين « باقتراب الفجر، وتميز الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وكلما ازداد موقف الإسلاميين وضوحاً، وكلما نجحوا في نقل هذا الوضوح إلى » الناس « وإلى عامة المثقفين ، كلما ازداد السعار العلماني ، وكلما تواتر انحداره الأخلاقي والفكري بصورة متسارعة ومتخبطة.
خامساً : لقد شاء الله تعالى أن يعلو مد الحركة الإسلامية ، ويشتد عودها ، في الوقت الذي كانت فيه أكبر تجربة أوربية عقائدية جديدة تذوي وتنهار ، وتنتهي بفضيحة سياسية واقتصادية وإنسانية لا حدود لها ، وأعني بذلك

المشروع الماركسي - وهو نبت فلسفي أوربي كما هو معروف ، أي أنه إفراز لحضارة أوربا ومع سقوط الماركسية وتتابع انهيار نماذجها في أوربا وآسيا وإفريقيا ، بدأت حقائق التاريخ تعود من جديد ، لتؤكد ما حاولوا تغطيته وستره طوال قرن أو أكثر من تاريخنا الحديث ، عادت حقائق التاريخ ، لتبرز العداء الغربي تجاه الإسلام ، والحقد الغربي على المسلمين ، والقلق الغربي من ظهور دولة الإسلام من جديد ، وأصبحنا اليوم نسمع الكلام سافراً عارياً ، من الدوائر الغربية ، الإعلامية أو السياسية ، بأن » الإسلام « هو العدو الجديد / القديم ، للغرب ، ومن ثم ؛ فإن الحركة الإسلامية أو » الأصولية « كما صاغوها ، هي حائط الصد الذي يحول دون إعلان السيادة الأوربية على العالم أجمع ، وإعلان النصر النهائي للحضارة الأوربية في الأرض.
إن المواجهة مع الغرب اليوم، قد بدت مواجهة مع الكيان الإسلامي بوصفه أمة ، فليست القضية قضية يمين أو يسار، أو ليبرالية أو اشتراكية، أو ديكتاتورية أو ديمقراطية ، وإنما القضية أصبحت قضية الوجود الإسلامي بكامله ، فإما أن ينمحق في المشروع الغربي ، أو يكون عدواً للحضارة والمدنية ، وأصولياً وإرهابياً ، و... إلى آخر قائمة الاتهام.
ومن ثم ؛ تبدو الحركة الإسلامية اليوم في موقف الدفاع عن » الأمة « وعن » الوجود « وعن » الهوية « ، كل أولئك بالقدر نفسه فـي دفاعها عن » الديـن «. إن التحالف الغربي الصليبي والصهيوني ، يتجلى اليوم واضحاً فـي فلسطين ، وفي الـبــوسنة ، وفي جمهوريات آسيا الوسطى » السوفيتية سابقاً « ، وفــي الصومال ، وفي غيرها مـــن الـمواقع الديار ، وعندما نجحت جبهة الإنقاذ في الجزائـــر ، وحازت ثقة الشعب ، وأصبحت صاحب الشرعية لقيادة الجزائر ، فزعت الدوائر الغربية، وكان محور الفزع ليس الوضع الداخلي للجزائر، وإنما »آثار ما يحدث على أوربا ومصالحها في المنطقة« ، ومازلنا نذكر تصريحات سياسـيـة من أعلى الدوائر الغربية ، التي تؤكد بأنها لن تسمح بقيام حكم » أصولي « في الجزائر.
هذه الحقيقة ، جعلت الحركــة الإسلامية بمثابة الممثل الشرعي الوحيد لثقافة الدفاع عن الأمة ، وعن وجودها ، وتراثها ، وحاضرها ، ومستقبلها ، واستقلالها ، كما أنها الممثل الشرعي عن دينها وعقيدتها ، وبالتالي أصبح معظم المعادين للصحوة الإسلامية اليوم ، لا يـسـتـحــــون من الكشف عـن ولائهم الفاضح لأعداء الأمة ، إلى الحد الذى يتحدث فيه الشيوعيون والعلمانيون المصريـون - مثلاً - عن عميل للمخابرات الأمريكية ، وكأنه بطل قومي لأنه تجسس على معارض إسلامي ، كما أن الذاكرة مازالت تحفظ آخر برقية أرسلها طاغية أفغانستان الـمخلوع » نجيب الله « إلى الرئيس الأمريكي ، والتي قال فيها » ادخرني لعدوك..! « وعلقــت الصحافـــة يومها على البرقية بالقول : » إن نجيب الله عرض على الولايات المتحدة أن تساعده في مقابل أن يقف صخرة في طريق المد الإسلامي » الأصولي « في آسيا الوسطى ، وإلى الحد الذي

يشرنا فيه بعض المعارضين السودانيين من فلول العلمانية والشيوعية بقرب التدخل الغربي في السودان ، لتحريره من » الجبهة الإسلامية«!!!

#في دائرة الضوء

رؤية جديدة للدين الإسلامي*

روبن رايت

في آخر أيام شهر رمضان وفي اللـحـظـــات الباردة التي تسبق انبلاج الفجر وشروق الشمس تأتي إلي الأسماع أصوات المؤذنين من آلاف المساجد بالقاهرة تلك المدينة القديمة قدم الزمن تقول: الله أكبر الله أكبر« تـنـطـلـق مـــن مكبرات الصوت من خلال شوارع المدينة الضيقة والملتوية ، بعدئذ تبدأ الشوارع التي كانت خالية من الناس في الحركة.

لقد كان هذا صباح يوم عيد الفطر.

انطلقت أصوات الناس بالتهليل ، تحمل في طياتها أدعية الحمد والثناء »الحمد لله وحده صدق وعده ، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا اله الا الله« إنها واحدة من أكبر المدن في العالم العربي تمثل منطقة حضارية هائلة تضم بين جنباتها كل الأشياء.

إنها أيضاً مدينة عربية ، قريبة من قلب الصحوة الإسلامية المتنامية ، التي تدعو مسلمي العالم إلى أن يصبحوا على علاقة أوثق بجذور دينهم أكثر من أي وقت مضى خلال التاريخ الإسلامي ، الذي استمر 1400 عام حتى الآن.

يشكل الإسلام - الذي يبلغ عدد أتباعه بليون نسمة في كافة أنحاء العالم ويعيش ملايين منهم كأقليات في الغرب - يشكل اليوم قوة سياسية وثقافية دولية ، تقف لتعيد تحديد علاقة الغرب بالعالم الثالث ، وتتحدى مفاهيمه عن التقدم ، وتضع المعايير للنظام العالمي الجديد.

في الشهور الأخيرة احتلت الأخبار الإسلامية العناوين الرئيسة في الصحف ، بعد المكاسب الانتـخـابـيـة التي حقـقـوها في الجزائر ، والأردن ، والكويت ، بعد أن فجر الإسلاميون المتطرفون القنابل في نيويورك والقاهرة(1).

واذا مانحينا العناوين الرئيسـية في الصحف جانباً فإن الحقيقة الأكثر أهمية تتمثل في أن الدين أصبح بشكل متزايـد جزءا لا يتجزأ من نسيج الحياة اليومية للمسلمين ، من أفريقيا إلى آسيا ، ومن نيوجيرســي إلى مانيلا ، حيث تأتي عملية التجديد للدين بمصدر جديد للهوية الثقافية ، والعمل السياسي في عالم يشهد تغييرا كبيرا.

ففي الجمهوريات السوفيتية السابقـــة في أوزبكستان وطاجيكستان نجد أن مدارس قرآنية جديدة قد فتحت أبوابها كي تحل محـــــل المؤسسات التعليمية العلمانية التي قامت إبان الحكم الشيوعي ، وفي الأردن نجد أن الخـمـــــور قد منع تقديمها على طائرات الخطوط الأردنية ، وفي جنوب شرق آسيا نجد

أن ماليزيا تحاول بتردد تطبيق الشريعة الإسلامية، فـي حين تجابه الفيلبين خطر الحروب الانفصالية بتحديد مناطق للحكم الذاتي ، يعيش فيها المسلمون.
ومـــن تونـس إلـى الأردن يحصل الأب المسلم النشط على أصوات الأغلبية في الانتخابات المحلية لاتحــادات الطلبة والنقابات والمجالس البلدية ، كما أن المساجد في مصر تضيق بتدفق المصلين إليها ، حتى أنهم صاروا يؤدون صلواتهم في أقبية المباني ، وفي الحجرات الخلفية لها ، وحتى في الممرات الجانبية التي يسير فيها الناس.
لكن هذه الصحوة الإسلامية قليلاً ما يفهمها الغرب ، الذي تنبع تصوراته عن الإسلام من ثورة إيران في 1979 ، وجموعها الغاضبة التي كانت تهتف : »الموت لأمريكا« كما تنبع من أحداث لبنان، التي قــام خـــلالهـــا جيل من المحاربين المسلمين بعمليات قتل أو إرهاب للغربيين الذين غامروا ، واقتربوا من قلب الحرب الأهلية في لبنان.
وفي الواقع فان الارتباط التاريخي للإسلام بالسيف يجعل البعض من الغربيين يرتعد حينما يرى كلمات تقول : » لا اله إلا الله محمد رسول الله « مكتوبة فوق سيف مسلول على العلم السعودي وفي الوقت نفسه فإن هؤلاء لا يبالـــون بالـعـبـــارة التي تقول » نحن نثق في الله « المنقوشة على ظهر الدولار الأمريكي.

الافتراءات والمفاهيم الخاطئة :

يعتبر الربط بين الإسلام والمحاربين من رجال القبائل الـعـربـيـــة الذين نشروا الإسلام في بدايته واحدا من العديد من المفاهيم الخاطئة ، التي لها مـفـعـولـهــــا اليوم. فالعرب في التسعينات يتزايد وضعهم كأقلية بين الـ 75 دولة التي تشكل »دار الإســـلام« ، والتي تقع مراكزها الكبرى حالياً في أندونيسيا ، وباكستان ، وبنجلاديش ، والهند ، وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق في آسيا الوسطى.
إن خمس سكان العالم ينتشرون عبر منطقة تمتد مسافة 11000 ميل من غرب أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا ، وهؤلاء جميعا يشهدون بأن محمدا هو خاتم أنبياء الديانات السماوية. ولم يقتصر الأمر على الربط بين الإسلام والسيف ، ذلك أن هناك أيضاً خرافات وافتراءات أخرى منها قولهم :
- إن الدين الإسلامي دين »بربري«؛ لأنه يطبق حدودا مثل : قطع الرأس ، وبتر الأعضاء، والـرجـم، كـعـقـوبـــات لبعض الجرائم. وفي الحقيقة فإن المملكة العربية السعودية، وإيران عموماً ، والسودان من حين لآخر يطبقون هذه العقوبات إلا أن قطع الـــرأس في الرياض لا يمكن أن يكون أكثر بربرية من الإعدام بالكرسي الكهربائي.

إن كل المواطنين اعتبارا من سائقي سيارات الأجرة إلى أساتذة الجامـعـات يثنون على هذا الأسلوب العقابي ، ويردون على المنتقدين بالإشارة إلى الفارق بين مـعـــدلات الجريمة في الرياض ، ومعدلاتها في نيويورك.
- إن الوجه الصارم لآية الله روح الله خميني - الذي حكم بالموت على المرتدين - يمثل غالبية رجل الدين من المسلمين ، لكن يتعين علينا أن نجرب مشاهدة رجـــــل دين حكيم على شاشة التلفزيون هو الشيخ محمد متولي الشعرواي ، الذي يجلس متربعا مساء كل يوم جمعة ، ويقوم بروح طيبة بتفسير القرآن الكريم للملايين من المشاهدين.
- إن الإسلام الجهادي يسير على طريق التصادم العنيف مع الغرب.
وفي هذا الصدد يمكن القول بأن الإسلام قد يكون على خلاف مع الغرب في نواحي مـعينة ، لكن أسلحته بالنسبة للمستقبل تأخذ شكل المؤتمرات ، والمنتديات الفكرية، وصـنـاديق الاقتراع ، أكثر من أن تأخذ شكل الإرهابيين الملتحين ، حتى في مصر التي عانت من أسوأ أعمال العنف الإسلامية في السنوات الأخيرة.
في الواقع فإنه في الوقت الذي يبدو فيه أن العالم الإسلامي صار الجبهة التالية للصـــراع بـعــد الحـــرب الباردة ، فإن ذلك لا يرجع إلى حد كبير إلى أن المسلمين يمثلون تهديداً عسكرياً أو إرهابياً ، لكن لأنهم يطرحون تحديا أساسيا : يتمثل في قوة اجتماعية سياسية متنامية ، تثير تساؤلات حول بعض مفاهيم الغرب ؛ عن الواقعية ، وعن طبيعة التقدم ، والعلاقة بين الله والبشر، ودور التقنية، والعصرية، والمبادئ الأخلاقية في حياة الإنسان.
هناك جيل جديد من الإسلاميين الذين درس الكـثـيـــر مـنهـــم في الغرب على استعداد للاستفادة من المفاهيم الديمقراطية.
إن هؤلاء الإسلاميين يتسلحون بالكتابات القديمة من القرآن ، التي جرى تعديلها لتتواءم مع احتياجات الحاضر في إطار الإصلاح العصري ، وهي تمثل واحــــــدة من أهم القضايا الفكرية في التاريخ الإسلامي.
وفي هذا الصدد يقول أحد المفكرين » إنها ليست مسألة إحياء روحية فـقـــط ، إنها مسألة إحياء أيضاً للقرآن ، كما أنها تجديد للفكر ذاته ، إنها صحوة لنشاط الطـاقـة الإسلامية الكامنة ، وهي على الأغلب صحوة تقودها الصفوة العصرية ، التي تعرضت لتأثير الغرب ولتحدي ثقافة الغرب ذاتها «ويضيف : » أمـــــا مسألة أن قدر العالم الإسلامي المحتوم هو الصراع مع الغرب فإن ذلك يعتمد على مدى استعداد الغرب لقبول مستوى من النزاهة والعدل يسمح بسيادة الديمقراطية في العالم الثالث ، حتى ولو تولدت عنها الحركة الجهادية الإسلامية ، وضمانُ معاملة المسلمين في البوسنة والهرسك ، وفي فلسطين ، وليبيا بالمعاملة نفسها التي يلقاها اليهود في إسرائيل ، والنصارى في أي مكان من العالم «.

ويقول آخــــر » المفروض أن نتحدث عن الاستقلال الفعلي ، لا الاستقلال الاسمي : عن الاستقلال الاقتصادي ، وعن الاستقلال في الأنظمة التعليمية ، والأنظمة السياسية إلا أن هذا قد يتعارض بشكل أو بآخر مع مصالح الغرب.
إن قيام علاقة بناءة بين الغرب والعالم الثالث يعني وضع جداول أكثر عدلا لسداد ديون الدول المدينة في العالم الثالث ، وإقامة علاقات تجارية أكثر عدالة ، وتحقيق قدرة أفضل من جانب الدول النامية على الاستفادة من مواردها الطبيعية «.
ومن جهة أخرى يقول مفكر آخر اقتفى الحركة السياسية من ثورة مصر في عام 1919 التي استمر المصريــون بـعـدها في تبني التقاليد الغربية في مجالس الأعمال والثقافة حتى ثورة جمال عبد الناصر في 1952 التي أقــامت الاستقلال الاقتصادي الاجتماعي على مذاهب قومية علمانية ماركسية.
» أعتقد أننا الآن في المرحلة الحديثة مـــــن حركة التحرير الوطنية وفي إطار هذه المرحلة اكتشفنا أننا قد انغمسنا كثيراً في التقاليد الـغـــربية إلى الحد الذي نسينا فيه حقيقة أننا نختلف عنه أي : عن الغرب، وأننا حينما نتحدث عن شخصيتنا، وعن هويتنا الوطنية، فإننا نأتي حتماً إلى الإسلام «.
ويضيف إن أول شيء نرفضه في الغرب هو إصرار أصحاب الثقافة الـغـربـيــة على أنهم يحتكرون مفهوم التقدم، وأنهم يحددون هوية التقدم والعصرية بربطها بالحياة الغربية، ونحن نتساءل لماذا؟!«.
ويضيف:» إن المسلمين إذا ما تولوا زمام الحكم فإنهم قد يضعون لدى الآخريــــن نموذجا يجعل المعايير هناك تختلف ، كما أنه لن يكون لديك معيار واحد للقياس يتمثل في معدل النمو الاقتصادي إننا لا نعبد معدل النمو الاقتصادي إننا فكرة الاستقلال الثقافي ، الذي ربما يمثل أكثر التهديدات للغرب ، وهو الاستقلال الذي يبني بديهات التقدم والعصرية على تحكم العقل ، والسعي إلى تحقيق الازدهار الاقتصادي ، وهي المفاهيم التي سادت الحضارة الغربية لأكثر من ثلاثة قرون.
إن الإسلام يتيح نموذجاً آخر يتمثل في نظام شامل للإيمان ، يمتزج فيه الدين ، والحكم ، والزواج ، والعمل امتزاجا كاملا في نسيج واحد متداخل ، تحل فيه الأفكــــار الراسخة والمحددة للأخلاق والقيم محل لغة الاستيعاب ، وتسود فيه سلطة التشريع على الأفكار الغربية العصرية عن القانون ، الذي يسن وفقا للضرورة والظروف المتغيرة.
يقول أحد المفكرين الفرنسيين ويدعى (فرانسوا بورجا) : إن هذه الحركات الإســــلامية تسبب لنا الجنون لأنها تؤذينا في الصميم.
لقد اجبرونا على أن ندرك الحقيقة التي تقول : إننا لا نملك احتكار النظام الرمـــزي ، اننا لسنا الوحيدين الذين يمكن أن يتعاملوا مع الأمور الكونية فهل صار ميزان القوى يتغير في هذا المجال؟ نعم - وهل هذا التغير في صالحنا ؟

والإجابة طبعا : » لا « ويضيف (فرنسوا بورجا) إلى ذلك قوله »لكن إذا كنا نفقد احتكارنا لهذه الأمور فهل يتعين علينا أن نواجــه ذلك بالتدخل في العمليات التي تتم في محيطنا ومن حولنا، إننا بذلك نربي عداوات أكثر.
إن الصحـــــوة الإسلامية تعكس جزئياً ظاهرة متنامية على المستوى العالمي ، أصبح فيها الدين قوة للتغيير ، تتسم بالطاقة والديناميكية.
وفي المجتمعات التي تناضل في محاولاتها تخليص نفسها من الإفلاس ، أو من الأنظمة التي تنقصها الكفاءة ، أو البحث عن بدائل قابلة للبقاء فإن الدين يوفر المُثُل ، والهوية ، والشرعية ، كما يتيح البنية التحتية أثناء عملية البحث ، ويتم ذلك بدرجات مختلفة في كل أنحاء العـــالم ، وعلى سبيل المثال فإن البوذيين في شرق آسيا ، والكاثوليك في شرق أوربا وأمريكا اللاتينية والفلبين، والسيخ والهندوس في الهند ، وحتى اليهود في إسرائيل، كل هؤلاء تحولوا إلى دياناتهم حتى يتمكنوا من تحديد أهدافهم ، ولتعبئة قواهم.
وفي أغلب مناطق العالم العربي نجد أن الإسلام يطرح طريقة لمعالجة عقود من الفشل : الاجتماعي ، والاقتصادي ، والعسكري ، والاضطراب الذي حدث مؤخراً بسبب حرب الخليج.
في حقبة الضياع هذه نجد أن الإسلام يبعث الحياة من جديد في صورة الماضي ، التي وحد أثناءها منطقة تعيش فيها قبائل متصارعة ، في إطار لغة واحدة ، ودين واحد.
ومنذ الفترة التي هاجر فيها الرسول -صلى الله عليه وسلم- من مكة في عام 622 م ، وبدأ فـي إقامة أول دولة إسلامية على أرض الصحراء العربية في المدينة المنورة فإن الإسلام بدأ عصرا ذهبيا من الصعود السياسي والفني غطى عدة قرون ، وتم نقل التعاليم الإسلامية مع الذين قاموا بفتح أسبانيا ، ومع الأتراك العثمانيين الذين فتحوا استانبول ، وعادوا عن طريق البلقان إلى أوروبا.
أما في آسيا فإن التجار العرب قاموا بإدخال أجيال كاملة من المتعاملين معهم في جاوه ، وسومطرة ، وبورما ، وماليزيا ، وتايلاند ، والهند ، والصين ، والفلبين ، في الإسلام خلال الفترة من القرن السادس حتى القرن الثاني عشر ، وبعد ذلك بمئات السنين انتقل الإسلام على السفن التي كانت تنقل العبيد من إفريقيا إلى أمريكا.
إن تلك هي الحقبة التاريخية التي تحول فيها العديد من المسلمين خاصة في المنطقة التي تـمـثـــل القلب من العالم الإسلامي ، لقد خدعت أجيال من العرب بسلسلة من المذاهب السياسية المتتالية ، التي تمثلت أساساتها في الماركسية والقومية اللتين جعلتهم يعيشون ، في أحلام الوحدة والاستقلال الذين لم يتحققا قط.

وكانت نـقـطـــــة التحول للعديد من هؤلاء هي الهزيمة العربية في عام 1967 على أيدي الإسرائيليين ، وهم شعب يعرف الكثيرُ من المسلمين عنه أنه شعب يحقق النصر ؛ لأنه لم يفقد صلته بجذوره الدينية.
إن العالم الإسلامي مشغول الآن بفكرة جديدة عن الجهاد، وهى تعني رد العدوان،وليست الفكرة التقليدية ، التي تعني شن الحرب المقدسة ، وهي تنطوي أيضاً على معنى النضال من أجل الإنجاز وبناء الأفضل، وإقامة مجتمعات أخلاقية، وتحقيق كفاية الإنتاج لتحقيق الاستقلال الاقتصادي.
وفي الحقيقة فإن المسلمين زادت مقاومتهم كثيراً ، وســـــوف يردون العدوان عن أنفسهم بالطبع إذا ما حاولت أوروبا أن تفرض نموذجها عليهم.
إننا نعلم أن أوروبا لا تؤمن بالديمقراطية إيمانا مطلقا ، فهم يكبحون الديمقراطية حينما تأتي بالإسلام إلى الحكم ، ويقضون عليها. لقد فعلوا ذلك في تركيا ، وفي الجزائر ، وإذا ما تعرض الإسلام للظلم والاضطهاد فإن المسلمين سوف يتحولون إلى الجهاد ، ويعني هذا الجهاد المقاومة ، ولا يعنى الحرب ؛ لأنه إذا وجه شخص إليك فعلا ، فإنك توجه إليه بالتالي فعلا آخر «.

الهوامش :

* للكاتب (روبن رايت) في مجلة (لوس أنجلوس) الصادرة في 6 أبريل 1993.
(1) أثبتنا في الترجمة ألفاظ الكاتب وتعبيراته دون تدخل منا ، حتى تتسق أفكاره أمام القارئ المسلم ، ويكمل تصورنا عن نظرة الغرب إلى الصحوة ، ولا يعني ذلك - كما هو واضح - موافقتنا على تعبيراته واتهاماته.

منتدى القراء

خاطرة حول خواطر في الدعوة

طالعت ما كتبتم في ركن - خواطر فـي الدعـــوة - مجلة البيان عدد65 محـرم 1414 هـ.
فخطرت لي خاطرة سجلتها لكم مبينا قضية ليـسـت غـائبة عنكم ولا بالجـديـدة عليكم أو عندكم ، ولكن أردت بها التبيين والتوضيح والتركيز أكثر:
صحيح أن الفئة العريضة من المجتمع الإسلامي اليوم هم ممّن ذكر فـضـيـلـة الشيخ العبدة تسمية ابن القيم - رحمه الله - لهم ولأمثالهم بـ » أصحاب العقل الـمعيشي فلا يهمهم إلا زينة الدنيا وبريقها. ولا ذكر لهم غير المسكن والملبس والسيارة والأثاث والراتب.
وجيد كذلك أن توجه دعوة للدعاة للاهتمام بهؤلاء ونقلهم مما هم فيه إلى ما هو أفضل لهم في الدنيا والآخرة ولكن هناك حقيقة لا يمكن إنكارها، ولا نغض

الطرف عنها، وهــي أن الفـئــة العريضة أيضاً في المقابل من دعاتنا وللأسف يشغلهم شغل الفئة الأولى ، فمن مــن دعاتنا وعـلـمـائـنــا - طبعا إلا من رحم الله - ممَّن يتبوؤون المناصب العليا في المؤسسات الرسمية ، والمراكز الإســلامية ، والجمعيات الخيرية والعلمية وغيرها... ، منَ مِن هؤلاء من لا يهتم بامتلاك المساكن العديدة والسيارات المختلفة ، والسعى إلى الحصول على أرفع الرواتب والوصول إلى أعلى الدرجات والمناصب...؟!
إن السعي في تحصيل رزق الأطفال واجب ، وتأمين مصالح الأهل كذلك.
ولكن أن نبالغ في كل ذلك وننغمس في تحصيل الكماليات بدرجات أرفع وكميات أكبر فهذا ما يأباه العقل.
إن على دعاتنا وعلمائنا إذا أرادوا حقا أن يُخرجوا هذه الفئة مما هي فيه وينتقلوا بها إلى بر الأمان ، عليهم أن يتورعـــوا هم - أولاً - عن هذه الشبهات ، وأن يبتعدوا عن حياة البذخ والترف المُبَررة ، وأن يعيشوا هموم مجتمعاتهم ، ويشاركوها حياة المعاناة ، وعبء الحياة ، ثم يكونوا لهؤلاء قدوة في الاعتدال في العيش والبساطة في الحياة ؛ ليتّم لهم من خلال ذلك - بإذن الله عز وجـــــل - الولـــوج إلى قلوبهم ، وجرّها إلى الخير في الدنيا والآخرة ، وليتذكر كثير من دعاتنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يورث لأهله ديناراً ولا درهماً ، رغم أنهم أعز وأرفع عند الله منَّا ومن أهلنا وأولادنا.
وليذكر هؤلاء - كذلك - أنّ رسول هذه الأمة - عليه الصلاة والسلام - كانت تمر عليه الأيام تلو الأيام فلا تُشعل نار طهي في بيته ، كما روت أُمنَا عائشة - رضي الله عنها - كما كان - عليه الصلاة والسلام - يسأل أصحابه إكرام ضيوفه لافتقاده ما يطعمهم به عليه الصلاة والسلام.
وإنها لوقفة جديرة بالتأمل من كل داعية إلى الله ، والله المستعان

أخوكم نبيل الأميري

منتدى القراء

إلى الأستاذ عادل التل مع التحية

لست ممن يفضل النقاش والحوار عبر صحف المجلات ، إلا أنني وبعد قراءة مقالة الأخ عادل التل »أخطار النزعة المادية في الـعـالم الإسلامي ، نقد كتابات جودت سعيد« في عدد البيان »البيان« (65 - محرم 1414) رأيت أن أكتب هذه الرسالة. وما أذكر هنا يقتصر فقط على ما قرأته في هذه المقالة، وهي الثالثة من مجموعة مقالات متعددة لم ينته نشرها بعد:
إنه لأمر مؤلم أن نفتقد في عالمنا الإسلامي الجو العلمي الهادئ النظيف الذي يتيح المجال للحوار الفكري دون التعرض للإخلاص والـنـيــات. فـنجد أن الأخ

عادل يقول : »هل هذا الطرح خروج من الدين أم لا؟« (ص 36) إن عد الأستـاذ جــودت فـي عــــداد »الـماديين« و»الـماركسيين« ظلم كبير لمن يؤمن ويعيش على الإيمان بالله ورسوله ، ومجانبة للحقيـقــة، وتشويش للقارئ المسلم وخاصة لمن يطلع بشكل واسع على كثير من الكتابات الإسلامية. ويظهر هذا التشويش من رسالة »صدمة وحيرة« المنشورة في نفس العدد من البيان (65).
من قرأ كتابات الأستاذ جودت يلحظ أن ما ورد في مقالة النقد هذه فـقــرات أخـــذت من سياقها ، ليعيد الأخ عادل صياغتها بأسلوبه ، وبما يوافق رأيه حول »المدرسة المـاديــة« لقد اتهم الأستاذ جودت بأنه »يلغي مكان الدليل في القرآن« (ص 34) وما أظن الكاتب قد فــهـم المقصود من مجال الأفكار المعروضة.
وحتى لا أعقد الأمور، وأطـيــل فـيهــا سأذكر مثالاً واحداً وهو قضية »الشورى« لأشــيـر إلى موضوع الاستفادة من » عالم الآفاق والأنفس« والذي يؤكده الأستاذ جودت ، وأظــن أن الأخ عادل قد أخطأ في فهمه فأخذه على أنه إلغاء للنص : اختلف علماء المسلمين ومـنـذ القديم حول كون الشورى »ملزمة« أم »معلمة« والــذي يقرأ ما كتب يجد أن هذا الأمر لم يحـسـم عبر الـسـنين. ولكن إذا نظرنا إلى عالم الشـهـادة والواقع والتاريخ وتجارب البشر رأينا أنه من الحكمة والأنسب لحفظ مصالح العباد وأمور الحياة في هذا العصر أن يشترك المتشاورون في صــنـع القرار ، بعيداً عن الفردية والجـزئـيــة في اتخاذ القرار. هل في الاستفادة من عالم الـواقــع إعراض عن الآيات والأحاديث ؟ لا أظـن هذا وهو ما حاول الأخ عادل أن يفهمه للقارئ.
وأخيراً أدعو الله أن يلهمنا الفهم الصحيح لتغيير ما بأنفسنا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).
وأدعو إخوتي من شباب الإسلام إلى العناية الجادة بالقراءة والبحث والحوار.
وأدعو أخي عادل التل إلى قراءة ثانية وثالثة لكتب مفكرينا وعلمائنا ، وإن شاء الله لنا لقاء للحوار المباشر ، وتبادل الأفكار ، والمعايشة الأخوية.

د. مأمون مبيض

الورقة الأخيرة

بناء الإنسان

أحمد عبد الرحمن الصويان

لقد شرَّف الله الإنسان ، وكرمه عــلــى سائر المخلوقات بنعمة العقل ، وجعل ذلك مناطــاً للأمر والتكليف ، ولذا فليس غريباً أن يوجد في كتاب الله - عز وجل - عشرات الآيات، التي تدعو إلى التفكر والتعقل ، والنظر في ملكوت الله سبحانه وتعالى ، من مثل قوله عــز وجل :

((إِنَّ فِـي خَـلْـقِ الـسَّـمَــوَاتِ والأَرْضِ واخْــتِــلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ)) [آل عمران:190].
ولكن هل يجوز أن يكون عقل الإنسان انعكاساً لأفـكــار المجتمع من حوله..؟ فيتأثر بنمط التفكير السائد ، ولا يفكر إلا فيما يفكر فيه الناس ، ولا يعمل إلا ما يعمله الناس..!
إن البيئة الاجتماعية والفكرية التي يعيش فيها الإنســـان تؤثر تأثيراً بالغاً على تصوارته وأفكاره ، وهي التي تصنع في الغالب أطروحاته وهمومه. والأمة الإسلامية تعاني من فراغ مدهش ، جاء نتيجة تخلف عقود متتابعة ، وزاد في ترسيخه وتعميق جذوره الغزو الثقافي الغربي ، قبل الاستعمار وبعده. وإننا نعاني من أدواء عديــدة في البيئة التي نعيش فيها ، ومن ملامح ذلك على سبيل المثال :
- قصور بيِّن في طريقة التفكير.
- قصور في نوعية المسائل التي يفكر فيها الإنسان ، ويشغل نفسه بها.
- قصور في طريقة بحث الأفكار ، ومناقشتها مع الآخرين.
- قصور في توظيف الأفكار في ميادين العمل والبناء.
وأبناء الصحوة الإسلامية جزء من هـذا المجتمع يتأثرون به كـغـيـرهم سلباً وإيجاباً ، ومن مهمات الحركة الإسلامية انتشار هذه الإيجابيات وتنميتها، ومقاومة السلبيات ، وتقليلها قدر الإمكان. ولقد قامت الحركة الإسلامية بجهد مبرور مشكور في هذا الميدان ، ولكنه أقل بكثير ممَّا يجب، وأقل بكثير من الإمكانات التي تملكها، وكما قال الشاعر:

ولم أر في عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام

إن بناء الإنسان المفكر القادر على التمييز والنظر من أصعب الصناعات التربوية ، ولكنهــا في الوقت ذاته من أهم الصناعات. ومهما كثرت الضغوط على الصحوة الإسلامية،وتزايدت عليها المحن ، وتكالب عليها الأعداء ، وتشعبت بها دروب العمل ، فيجب أن يـكـــون ذلك من أولويات البناء والتكوين. حتى تضمن بفضل الله تعالى بقاءها وصلابتها من جهة ، ونقـاءهـــا وسلامة توجهها من جهة أخرى. وإن غياب المنهج العلمي ، وفقدان الضوابط الشرعية في الفهم ، والتلقي ، والعمل ، يؤدي جزماً إلى هذا القصور والخلل الذي نعيشه. والنهوض بالأمة من هذه الكبوة لن يكون إلا وفق الأسس والقواعد الشرعية ، المبنية على الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح.
والعاملون للإسلام لا ينقصهم - في الغالب - الصدق والإخلاص، وإنَّما يحتاجون إلى العلم الدقيق بمحكمات الشرع وأصولـــه، ليـتـسـنـى لهم تنزيلها على مقتضيات العصر.. ولذا كان التحدي الكبير الذي تواجهه الصحوة الإسلامية هو بناء الإنسان المفكر .!

تمت بعون الله ولله الحمد
